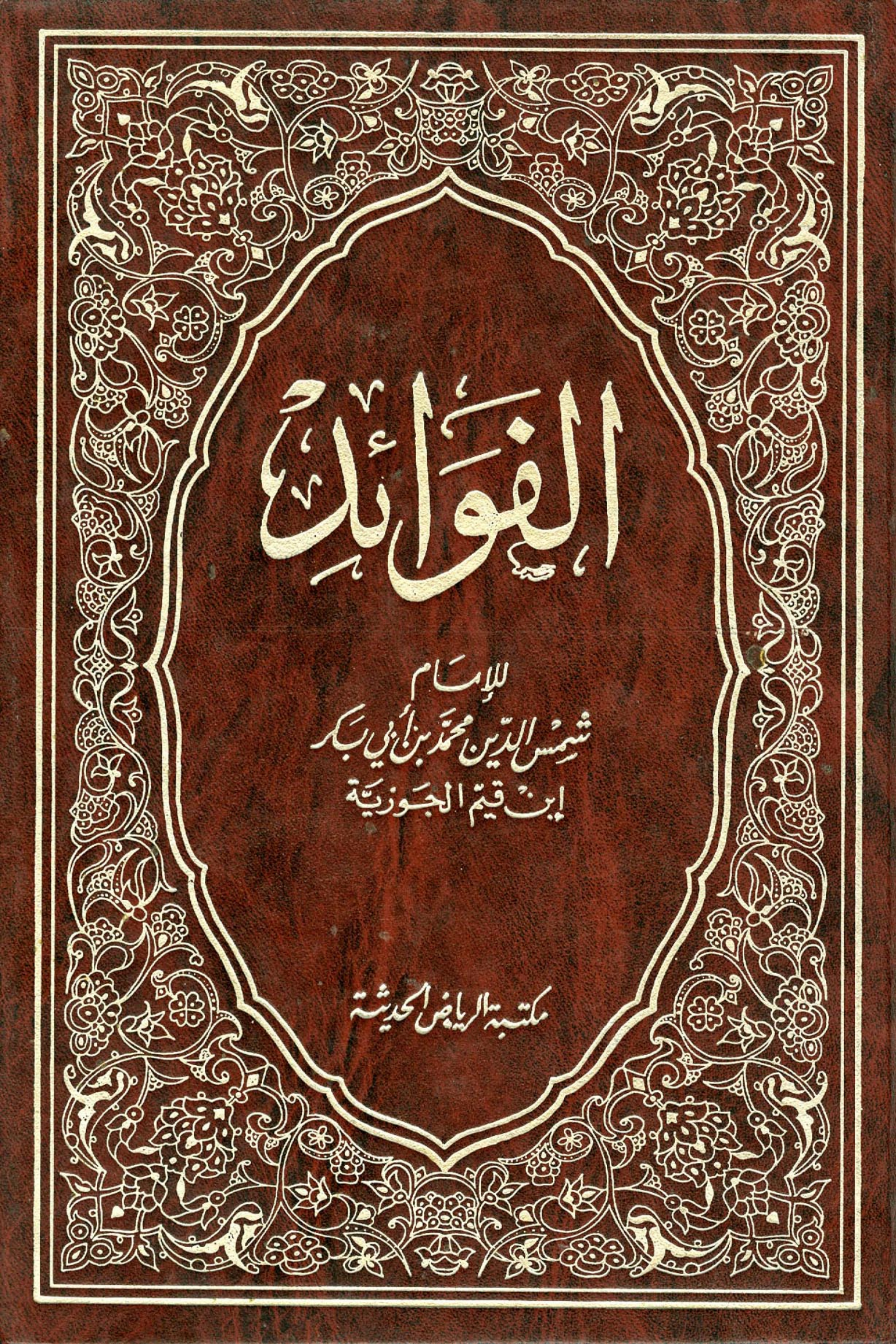

الفوائد
للإمام
شمس الدين محمد بن أبي بكر
ابن قيم الجوزية
مكتبة الرياض الحديثة



الفوائد

للشيخ الامام العـلامة محيي السنة وقامع البدعة

شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف

بابن قيم الجوزية المتوفى

سـنة ٧٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام محيي السنة قامع البدعة ابو عبدالله الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله ورضي عنه

قاعدة جليلة

اذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه والق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه اليه(١) فانه خطاب منه لك على لسان رسوله: قال تعالى (ان في ذلك لذكري لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) وذلك ان تمام التأثير لما كان موقوفا على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الاثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله علي المراد: فقوله (ان فى ذلك لذكرى) اشارة الى ما تقدم من أول السورة الي ههنا : وهذا هو المؤثر : وقوله (لمن كان له قلب) فهذا هو المحل القابل : والمراد به القلب الحى الذى يعقل عن الله كما قال تعالى (ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا) أى حيّ القلب : وقوله (أو ألقى السمع) أى وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه الى ما يقال له : وهذا شرط التأثر بالكلام : وقوله (وهو شهيد) اي شاهد القلب حاضر غير غائب * قال ابن قتيبة استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه وهو اشارة الى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل مايقال له والنظر فيه وتأمله : فاذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحيّ ووجد الشرط وهو الاصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معني الخطاب وانصرافه عنه الي شيء آخر حصل الاثر وهو الانتفاع والتذكر *

(١) الضمير الاول فى لفظة منه عائد الي من تكلم : والضمير الثانى فى لفظة اليه عائد الي من يخاطبه

﴿فان قيل﴾ اذا كان التأثير انما يتم بمجموع هذه فما وجه دخول أداة أو في قوله (أو ألقى السمع) والموضع موضع واو الجمع لا موضع أو التي هي لأحد الشيئين * قيل هذا سؤال جيد والجواب عنه ان يقال خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو فان من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فاذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وانه الحق وشهد قلبه بما أخبر به القرآن فكان ورود القرآن على قلبه نوراً علي نور الفطرة وهذا وصف الذين قيل فيهم (ويرى الذين أوتو العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق) وقال في حقهم (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور علي نور يهدي الله لنوره من يشاء) فهذا نور الفطرة علي نور الوحي . وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي : قال ابن القيم وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية * فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرأها عن ظهر قلب : ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج الى شاهد يميز له بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي فطريق حصول هدايته ان يفرغ سمعه للكلام وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه فيعلم حينئذ انه الحق : فالأول حال من رأى بعينيه ما دعى اليه وأخبر به : والثاني حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال يكفيني خبره فهو في مقام الايمان : والاول في مقام الاحسان هذا قد وصل الى علم اليقين وترقي قلبه منه الى منزلة عين اليقين: وذاك معه التصديق الجازم الذى خرج به من الكفر ودخل به في الاسلام : فعين اليقين نوعان نوع في الدنيا ونوع في الآخرة : فالحاصل في الدنيا نسبته الى القلب كنسبة الشاهد

الى العين : وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين فى الآخرة بالابصار وفى لدنيا بالبصائر فهو عين يقين في المرتبتين *

فصل

وقد جمعت هذه السورة من أصول الايمان ما يكفى ويشفي ويغنى عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول فانها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والايمان بالملائكة وانقسام الناس الى هالك شقى وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء وهؤلاء : وتضمنت اثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كمله من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين الصغرى والكبرى : والعالمين الأكبر وهو عالم الآخرة والأصغر وهو عالم الدنيا : وذكر فيها خلق الانسان ووفاته واعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده واحاطته سبحانه به من كل وجه حتي علمه بوساوس نفسه واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها وانه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه اليه وشاهد يشهد عليه فاذا أحضره السائق قال (هذا ما لدىّ عتيد) أي هذا الذى أمرت باحضاره قد أحضرته فيقال عند احضاره (ألقيا فى جهنم كلّ كفار عنيد) : كما يحضر الجاني الي حضرة السلطان فيقال هذا فلان قد أحضرته فيقول اذهبوا به الي السجن وعاقبوه بما يستحقه *

وتأمل كيف دلت السورة صريحًا علي أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها لا انه سبحانه يخلق روحًا أخري غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل حيث زعم ان الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه عليه يقع النعيم والعذاب والروح عنده عرض من أعراض البدن فيخلق روحًا غير هذه الروح وبدنًا غير هذا البدن

وههنا غير ما اتفقت عليه الرسل ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالي وهـذا فى الحقيقة انكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين فانهم لم ينكروا قدرة الله علي خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها كيف وهم يشهدون النوع الانسانى يخلق شيئا بعد شي، فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فنيت فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً وانما تعجبوا من عودهم باعيانهم بعد أن مزقهم البلي وصاروا عظاماً ورفاتا. فتعجبوا ان يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء : ولهـذا (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون) وقالوا (ذلك رجع بعيد) ولو كان الجزاء انمـا هو لأجسام غير هذه لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً بل يكون ابتداء ولم يكن لقوله (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) كبير معني فانه سبحانه جعل هـذا جواباً لسؤال مقدر وهو انه يميز تلك الاجزاء التى اختلطت بالارض واستحالت الي العناصر بحيث لا تتميز فاخبر سبحانه انه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم واشعارهم وانه كما هو عالم بتلك الأجزاء فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقا جديداً وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته فان شبـه المنكرين له كلها تعود الى ثلاثة أنواع * أحدها اختلاط اجزائهم بأجزاء الارض علي وجه لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص * الثانى ان القدرة لا تتعلق بذلك * الثالث ان ذلك أمر لا فائدة فيه أو انما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الانساني شيئاً بعد شيء هكذا أبدا كلما مات جيل خلفـه جيل آخر فاما أن يميت النوع الانساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول أحدها تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال فى جواب من قال (من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال (وان الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل ان ربك هو الخلاق العليم) وقال (قد علمنا

ما تنقص الأرض منهم) * والثاني تقرير كمال قدرته كقوله (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله (بلي قادرين على أن نسوى بنانه) وقوله (ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتي وانه على كل شيء قدير) ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر علي أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) * الثالث كمال حكمته كقوله (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين) وقوله (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا) وقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى) وقوله (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق) وقوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون) ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع وان كمال الرب تعالي وكمال اسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص : ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم (فهم في أمر مريج) مختلط لايحصلون منه على شيء ثم دعاهم الي النظر فى العالم العلوى وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه ثم الى العالم السفلي وهو الارض وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته وأن ذلك تبصرة اذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر مادلت عليه مما اخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد فالناظر فيها يتبصر أولا ثم يتذكر ثانياً وان هذا لا يحصل الا لعبد منيب الي الله بقلبه وجوارحه : ثم دعاهم الى التفكر فى مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه حتي أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه مابين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها وأنبت به

الحبوب كلها علي تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها واشكالها ومقاديرها : ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لاتخفى علي المتأمل (وأحيا به الارض بعد موتها) ثم قال (كذلك الخروج) أي مثل هذا الاخراج من الارض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب خروجكم من الارض بعد ماغيبتم فيها : وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة فى القرآن فى كتابنا المعالم وبينا بعض مافيها من الاسرار والعبر ثم انتقل سبحانه الي تقرير النبوة باحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك فاخبر أنه ارسل الى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذبوهم فاهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذى أوعدتهم به رسله ان لم يؤمنوا وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب بل أخبر به إخباراً مفصلا مطابقاً لما عند أهل الكتاب: ولا يرد على هذا الاسؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بانه لم يكن شيء من ذلك أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان وتناقلته القرون قرناً بعد قرن فانكاره بمنزلة انكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية : ثم عاد سبحانه الي تقرير المعاد بقوله (أفعيينا بالخلق الأول) يقال لكل من عجز عن شيء عيي به وعيي فلان بهذا الأمر قال الشاعر

عيّوا بأمرهم كما * عيت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى (ولم يعى بخلقهن) قال ابن عباس يريد افعجزنا : وكذلك قال مقاتل : قلت هذا تفسير بلازم اللفظة وحقيقتها أعم من ذلك فان العرب تقول أعيانى أن اعرف كذا وعييت به اذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول أعيانى دواؤك اذا لم تهتد له ولم تقف عليه : ولازم هذا المعنى العجز عنه: والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى فان الحمامة لم تعجز عن

بيضها ولكن أعياها اذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة فهي تدور وتجول حتي ترمى بها فاذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتي لاتنال فهي تنقلها من مكان الى مكان وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيّ بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه وليس المراد بالاعياء فى هذه الآية التعب كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله (وما مسنا من لغوب) ثم أخبر سبحانه انهم (فى لبس من خلق جديد) أى أنهم التبس عليهم اعادة الخلق خلقاً جديدا ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الانسان فانه من أعظم الادلة علي التوحيد والمعاد : وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والارادات والصناعات كل ذلك من نطفة ماء : فلو أنصف العبد ربه لا كتفى بفكره فى نفسه واستدل بوجوده على جميع ماأخبرت به الرسل عن الله واسمائه وصفاته ثم أخبر سبحانه عن احاطة علمه به حتى علم وساوس نفسه ثم أخبر عن قربه اليه بالعلم والاحاطة وان ذلك أدني اليه من العرق الذي هو داخل بدنه فهو أقرب اليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق : وقال شيخنا المراد بقول نحن أى ملائكتنا كما قال (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) أى اذا قرأه عليك رسولنا جبريل : قال ويدل عليه قوله (اذ يتلقى المتلقيان) فقيد القرب المذكور بتلقى الملكين ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقى الملكين فلا حجة فى الآية لحلولى ولا معطل: ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله ونبه باحصاء الاقوال وكتابتها على كتابة الاعمال التى هى أقل وقوعا وأعظم أثرا من الاقوال وهى غايات الاقوال ونهايتها: ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهى سكرة الموت وأنها تجىء بالحق وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذى تعجل

لها قبل القيامة الكبرى: ثم ذكر القيامة الكبرى بقول (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) ثم أخبر عن أحوال الخلق فى هذا اليوم وان كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الارض التى كان عليها له وعليه وغير شهادة رسوله والمؤمنين فان الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التى عملوا عليها الخير والشر والجلود التى عصوه بها ولا يحكم بينهم بمجرد علمه وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين *

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من اقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا اقرار: ثم اخبر سبحانه ان الانسان فى غفلة من هذا الشأن الذى هو حقيق بأن لا يغفل عنه وان لا يزال على ذكره وباله: وقال (فى غفلة من هذا) ولم يقل عنه كما قال (وانهم لفى شك منه مريب) ولم يقل فى شك فيه وجاء هذا فى المصدر وان لم يجىء فى الفعل فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه كأن غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه: وهذا أبلغ من أن يقال فى غفلة عنه وشك فيه فانه جعل ماينبغى أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك: ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ: وعن العين فتنفتح: فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه ثم أخبر سبحانه أن قرينه وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة يكتب عمله: وقوله يقول لما يحضره هذا الذى كنت وكلتنى به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به هذا قول مجاهد: وقال ابن قتيبة المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي: والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين أى هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه فحينئذ يقال (ألقيا فى جهنم) وهذا اما أن يكون خطابا للسائق والشهيد:

أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وان كان واحداً وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها أو تكون الالف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة ثم اجري الوصل مجري الوقف ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات * أحدها أنه كفار لنعم الله وحقوقه : كفار بدينه وتوحيده واسمائه وصفاته : كفار برسله وملائكته : كفار بكتبه ولقائه * الثانية انه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً * الثالثة انه مناع للخير وهذا يعم منعه للخير الذى هو احسان الى نفسه من الطاعات والقرب الى الله والخير الذى هو احسان الى الناس فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق * الرابعة أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه * الخامسة انه مريب أى صاحب ريب وشك ومع هذا فهو آت لكل ريبة يقال فلان مريب اذا كان صاحب ريبة * السادسة انه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله الها آخر يعبده ويحبه ويغضب له ويرضي له ويحلف باسمه وينذر له ويوالي فيه ويعادى فيه فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الامر عليه وانه هو الذى أطغاه وأضله فيقول قرينه لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق كما قال ابليس لاهل النار (وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي) وعلي هذا فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله : وقالت طائفة بل قرينه ههنا هو الملك فيدعى عليه انه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى وانه لم يفعل ذلك كله وانه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب فيقول الملك ما زدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة (ولكن كان فى ضلال بعيد) فيقول الرب تعالي(لا تختصموا لدىّ) وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورة الصافات والأعراف : واخبر عن اختصام الناس بين يديه فى سورة الزمر : وأخبر عن اختصام أهل النار فيها فى سورة الشعراء وسورة ص : ثم اخبر سبحانه انه لا يبدل القول لديه فقيل المراد بذلك قوله (لاملأن جهنم من الجنة والناس

أجمعين) ووعده لاهل الايمان بالجنة وان هذا لا يبدل ولا يخلف : قال ابن عباس يريد ما لو عدي خلف لاهل طاعتي ولا أهل معصيتي : قال مجاهد قد قضيت ما أنا قاض وهذا أصح القولين في الآية : وفيها قول آخر ان المعنى ما يغير القول عندى بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام فيكون المراد بالقول قول المختصمين وهو اختيار الفراء وابن قتيبة : قال الفراء المعني ما يكذب عندى لعلمي بالغيب : وقال ابن قتيبة اى ما يحرف القول عندى ولا يزاد فيه ولا ينقص منه : قال لانه قال القول عندى ولم يقل قولي وهذا كما يقال لا يكذب عندى : فعلي القول الاول يكون قوله (وما انا بظلام للعبيد) من تمام قوله (ما يبدل القول لدىّ) فى المعنى أى ما قلته ووعدت به لابد من فعله : ومع هذا فهو عدل لاظلم فيه ولا جور : وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين : أحدهما ان كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده : ثم أخبر عن سعة جهنم وانها كلما القى فيها (تقول هل من مزيد) وأخطأ من قال ان ذلك للنفى اى ليس من مزيد والحديث الصحيح يرد هذا التأويل : ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين وان أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الاربع: ﴿أحداها﴾ ان يكون أوابا أي رجاعا الى الله من معصيته الى طاعته ومن الغفلة عنه الي ذكره : قال عبيد بن عمير الاواب الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها : وقال مجاهد هو الذي اذا ذكر ذنبه فى الخلاء استغفر منه : وقال سعيد بن المسيب هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب * ﴿الثانية﴾ ان يكون حفيظاً قال ابن عباس لما ائتمنه الله عليه وافترضه : وقال قتادة حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته : ولما كانت النفس لها قوتان قوة الطلب وقوة الإمساك كان الأواب مستعملا لقوة الطلب فى رجوعه الى الله ومرضاته وطاعته : والحفيظ مستعملا لقوة الحفظ فى الامساك عن معاصيه ونواهيه فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه والأواب المقبل على الله بطاعته * ﴿الثالثة﴾

قوله (من خشى الرحمن بالغيب) يتضمن الاقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ويتضمن الاقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه ويتضمن الاقرار بوعده ووعيده ولقائه فلا تصح خشية الرحمن بالغيب الا بعد هذا كله * ﴿الرابعة﴾ قوله (وجاء بقلب منيب) قال ابن عباس راجع عن معاصى الله مقبل علي طاعة الله : وحقيقة الانابة عكوف القلب علي طاعة الله ومحبته والاقبال عليه: ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) ثم خوفهم بان يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وانهم كانوا أشد منهم بطشا ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم وانهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا فى البلاد وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله : قال قتادة حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركا . وقال الزجاج طوفوا وفتشوا فلم يرو محيصاً من الموت : وحقيقة ذلك انهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه : ثم أخبر سبحانه ان فى هذا الذى ذكر (ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) ثم أخبر انه خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء تكذيب لاعدائه من اليهود حيث قالوا انه استراح فى اليوم السابع ثم أمر نبيه بالتأسى به سبحانه فى الصبر على ما يقول اعداؤه فيه كما انه سبحانه صبر على قول اليهود انه استراح ولا أحد أصبر علي أذى يسمعه منه ثم أمره بما يستعين به علي الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود : فقيل هو الوتر وقيل الركعتان بعد المغرب . والاول قول ابن عباس : والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن على واحدي الروايتين عن ابن عباس . وعن ابن عباس رواية ثالثة انه التسبيح باللسان أدبار الصلاة المكتوبات . ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادى برجوع الأرواح الي أجسادها للحشر وأخبر ان هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد يوم يسمعون الصيحة بالحق

بالبعث و لقاء الله يوم تشقق الارض عنهم كما تشقق عن النبات فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا بطء ذلك حشر يسير عليه سبحانه : ثم أخبر سبحانه انه عالم بما يقول اعداؤه وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم اذ لم يخف عليه وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء ثم أخبره انه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الاسلام ويكرههم عليه وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده . فهو الذي ينتفع بالتذكير وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه فلا ينتفع بالتذكير *

فائدة

قول النبي صلي الله عليه وسلم لعمر «وما يدريك ان الله اطلع علي أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١) أشكل علي كثير من الناس معناه فان ظاهره

(١) هذه قطعة من حديث فى الصحيحين وفيه قصة ولفظه عن علي رضي الله عنه قال « بعثني رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم أنا والزبير والمقداد بن الاسود قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فان بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا الى الروضة فاذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت مامعى فى كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فاخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم فاذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة الى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم ياحاطب ماهذا قال يارسول الله لاتعجل علي انى كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فاحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ومافعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الاسلام فقال رسول الله صلي الله عليه وآله

إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاؤا منها وذلك ممتنع : فقالت طائفة منهم ابن الجوزي ليس المراد من قوله « اعملوا » الاستقبال وانما هو للماضي : وتقديره أي عمل كان لكم فقد غفرته : قال ويدل على ذلك شيئان : أحدهما أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله : فسأغفر لكم : والثانى انه كان يكون اطلاقا فى الذنوب ولا وجه لذلك : وحقيقة هذا الجواب اني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ماسلف من ذنوبكم لكنه ضعيف من وجهين أحدهما ان لفظ اعملوا يأباه فانه للاستقبال دون الماضي: وقوله « قد غفرت لكم » لايوجب أن يكون اعملوا مثله فان قوله « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل كقوله (أتي أمر الله) (وجاء ربك) ونظائره * الثاني أن نفس الحديث يرده فان سببه قصة حاطب

وسلم لقد صدقكم فقال عمر يارسول الله دعني اضرب عنق هذا المنافق فقال انه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله ان يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه ورواه أيضاً الامام احمد بن حنبل : وقوله في الحديث « روضة خاخ » بخائين معجمتين موضع بين الحرمين وهو من حمي المدينة : والظعينة المرأة : وقوله « فاخرجته من عقاصها » جمع عقيصة وهي الضفيرة من شعر الرأس : وقد ذكر يحيي بن سلام في تفسيره ان لفظ الكتاب : أما بعد يامعشر قريش فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءكم بجيش كالليل بسير كالسيل فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجزله وعده فانظروا لانفسكم والسلام: كذا حكاه السهيلي : وقوله « انه قد شهد بدراً » ظاهره ان العلة فى ترك قتله كونه من شهد بدرا ولولا ذلك لكان مستحقا للقتل وهي من ادلة من يقول ان الجاسوس يقتل ولو كان من المسلمين : وقوله « لعل الله » قد صرح العلماء بان الترجي المذكور في كلام الله وكلام رسوله للوقوع : وقد وقع عند الامام احمد وابي داود وابن ابي شيبة في حديث ابي هريرة بالجزم ولفظه « ان الله اطلع على أهل بدر » الحديث * والله أعلم

وتجسسه على النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لاقبلها (١) وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعا فالذى نظن فى ذلك والله أعلم ان هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لايفارقون دينهم بل يموتون على الاسلام وانهم قد يقارفون بعض مايقارفه غيرهم من الذنوب ولكن لايتركهم سبحانه مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لانه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لايقتضي ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقا بالمغفرة فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار علي القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك الى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد وهذا محال : ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب فضمان المغفرة لايوجب تعطيل أسباب المغفره ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر « أذنب عبد ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفره لى فغفر له ثم مكث ماشاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبا آخر فقال أى رب أصبت ذنبا فاغفر لى فغفر له ثم مكث ماشاء الله أن يمكث ثم اذنب ذنبا آخر فقال رب أصبت ذنبا فاغفره لى فقال الله علم عبدى ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى فليعمل ماشاء » فليس فى هذا اطلاق واذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم وانما يدل على أنه يغفر له مادام كذلك اذا أذنب تاب *

---

(١) لان هذه القصة كانت بعد بدر بست سنين وهو يدل على أن المراد ما سيأتى ولو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لانه صلى الله عليه وآله وسلم خاطب به عمراً منكراً عليه ما قال في أمر حاطب وقد أجاب بعضهم بجواب آخر: حاصله أن صيغة الامر في قوله « اعملوا » للتشريف والتكريم فالمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السالفة وتأهلوا لان يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة ان وقعت : قال الحافظ فى الفتح واتفقوا أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من اقامة الحدود وغيرها : والله أعلم

واختصاص هذا العبد بهذا لانه قد علم انه لايصر على ذنب وانه كلما أذنب تاب حكم يعم كل من كانت حاله حاله لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لاهل بدر: وكذلك كل من بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة اطلاق الذنوب والمعاصي له ومسامحته بترك الواجبات بل كان هؤلاء أشد اجتهادا وحذرا وخوفا بعد البشارة منهم قبلها كالعشرة المشهود لهم بالجنة : وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة وكذلك عمر فانهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها الى الموت ومقيدة بانتفاء موانعها ولم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق الاذن فيما شاؤا من الأعمال *

فائدة جليلة

قوله تعالى (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى منا كبها وكلوا من رزقه واليه النشور) أخبر سبحانه أنه جعل الارض ذلولا منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من اراد ذلك منها: واخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقرارا و كفاتاً : وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها : وثبتها بالجبال : ونهج فيها الفجاج والطرق : وأجرى فيها الأنهار والعيون : وبارك فيها وقدر فيها أقواتها : ومن بركتها ان الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها : ومن بركتها انك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان: ومن بركتها انها تحمل الأذي على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها فتوارى منه كل قبيح وتخرج له كل مليح : ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه : وتخرج له طعامه وشرابه فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذي وأقرب الى الخير*

والمقصود انه سبحانه جعل لنا الارض كالجمل الذلول الذي كيفما يقاد ينقاد وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولا فالماشي عليها يطأ علي مناكبها وهو أعلى شيء فيها ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الانسان وهى أعاليه . قالوا وذلك تنبيه علي أن المشي فى سهولها أيسر .وقالت طائفة بل المناكب الجوانب والنواحي ومنه مناكب الانسان لجوانبه. والذي يظهر ان المراد بالمناكب الأعالي . وهذا الوجه الذى يمشى عليه الحيوان هو العالى من الأرض دون الوجه المقابل له فان سطح الكرة اعلاها والمشي انما يقع فى سطحها: وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول. ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التى يمشون فيها وأودعها رزقهم فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن ثم نبه بقوله (واليه النشور) على انا فى هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل فلا يحسن ان نتخذه وطناً ومستقراً وإنما دخلناه لنتزود منه الى دار القرار فهو منزل عبور لا مستقر حبور ومعبر وممر لا وطن ومستقر:فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه واحسانه والتحذير من الركون الى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً بل نسرع فيها السير الى داره وجنته فلله ما فى ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير اليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه والاعلام بأنه سبحانه يطوى هذه الدار كأن لم تكن وانه يحيى أهلها بعد ما أماتهم واليه النشور *

فائدة

للانسان قوتان قوة علمية نظرية:وقوة عملية ارادية : وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والارادية : واستكمال القوة العلمية انما يكون بمعرفة

فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التى توصل اليه ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها: فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية: وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها: واستكمال القوة العملية الارادية لاتحصل الا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها اخلاصاً وصدقاً ونصحاً واحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه وتقصيره هو فى اداء حقه فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك وانه لا سبيل له الي استكمال هاتين القوتين الا بمعونته فهو مضطر الى ان يهديه الصراط المستقيم الذى هدى إليه أولياءه وخاصته وان يجنبه الخروج عن ذلك الصراط امابفساد فى قوته العلمية فيقع فى الضلال واما فى قوته العملية فيوجب له الغضب *

فكمال الانسان وسعادته لا تتم الا بمجموع هذه الأمور وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام: فان قوله (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتضمن الاصل الاول وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة اسمائه وصفاته وأفعاله: والأسماء المذكورة فى هذه السورة هى أصول الأسماء الحسنى وهى اسم الله والرب والرحمن: فاسم الله متضمن لصفات الألوهية واسم الرب متضمن لصفات الربوبية: واسم الرحمن متضمن لصفات الاحسان والجود والبر: ومعانى أسمائه تدور على هذا: وقوله (اياك نعبد واياك نستعين) يتضمن معرفة الطريق الموصلة اليه وانها ليست الا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه: واستعانته على عبادته: وقوله (اهدنا الصراط المستقيم) يتضمن بيان ان العبد لا سبيل له الى سعادته الا باستقامته على الصراط المستقيم وانه لا سبيل له الي الاستقامة الا بهداية ربه له كما لا سبيل له الى عبادته الا بمعونته فلا سبيل له الي الاستقامة علي الصراط الا بهدايته: وقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يتضمن بيان طرفى الانحراف عن الصراط المستقيم وان الانحراف الى احد الطرفين انحراف الي الضلال الذى هو فساد العلم والاعتقاد والانحراف الى الطرف الآخر انحراف الي الغضب الذى سببه فساد القصد والعمل

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة : وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية وحظه منها علي قدر حظه من الرحمة فعاد الأمر كله الى نعمته ورحمته: والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته فلا يكون الا رحيما منعماً وذلك من موجبات الهيته فهو الإله الحق وان جحده الجاحدون وعدل به المشركون: فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملا وحالا فقد فاز من كماله بأوفر نصيب وصارت عبوديته عبودية الخاصّة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين والله المستعان *

فائده

الرب تعالى يدعو عباده فى القرآن الي معرفته من طريقين : احدهما النظر فى مفعولاته : والثاني التفكر فى آياته وتدبرها فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة * فالنوع الأول كقوله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الي آخرها : وقوله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وهو كثير فى القرآن * والثاني كقوله (أفلا يتدبرون القرآن) وقوله : (أفلم يدبروا القول) وقوله (كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته) وهو كثير أيضا *

فأما المفعولات فانها دالة علي الأفعال والأفعال دالة علي الصفات فان المفعول يدل علي فاعل فعله وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختيارى من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا ارادة : ثم مافى المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال علي ارادة الفاعل وان فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر . وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى : وما فيها من النفع والاحسان والخير دال علي رحمته : وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال

على غضبه : وما فيها من الاكرام والتقريب والعناية دال على محبته . وما فيها من الاهانة والابعاد والخذلان دال على بغضه ومقته : وما فيها من ابتداء الشيء فى غاية النقص والضعف ثم سوقه الى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد : وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل علي امكان المعاد : ومافيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات : وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطى تلك الكمالات أحق بها فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ماأخبرت به رسله عنه: فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة علي الاستدلال بالآيات المصنوعات قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتي يتبين لهم انه الحق)أي ان القرآن حق فاخبر انه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم ان آياته المتلوة حق ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بماأقام من الدلائل والبراهين علي صدق رسوله . فآياته شاهدة بصدقه وهو شاهد بصدق رسوله بآياته فهو الشاهد والمشهود له : وهو الدليل والمدلول عليه : فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل لى علي كل شيء فأى دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه . ولهذا قال الرسل لقومهم (أفى الله شك) فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل : فالأشياء عرفت به فى الحقيقة وان كان عرف بها فى النظر والاستدلال بأفعاله واحكامه عليه ٭

فائدة

في المسند وصحيح أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود « قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال اللهم اني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أوعلمته أحداً من خلقك أو استأثرت

به فى علم الغيب عندك ان تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزني وذهاب همى وغمى الا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً قالوا يا رسول الله أفلا نتعلمهن قال بلي ينبغى لمن سمعهن ان يتعلمهن » فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية : منها أن الداعى به صدر سؤاله بقوله اني عبدك ابن عبدك ابن أمتك وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته الى ابويه آدم وحواء وفى ذلك تملق له واستخذاء (١) بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه : وان العبد ليس له غير باب سيده وفضله واحسانه وان سيده ان اهمله وتخلي عنه هلك ولم يؤوه احد ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة:فتحت هذا الاعتراف أني لاغنى بي عنك طرفة عين وليس لى من أعوذ به والوذ به غير سيدى الذى انا عبده : وفى ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهى انما يتصرف بحكم العبودية لابحكم الاختيار لنفسه فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار : واما العبيد فتصرفهم على محض العبودية فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون اليه سبحانه فى قوله (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقوله (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ومن عداهم عبيد القهر والربوبية فاضافتهم اليه كاضافة سائر البيوت الى ملكه واضافة أولئك كاضافة البيت الحرام اليه واضافة ناقته اليه وداره التي هى الجنة اليه : واضافة عبودية رسوله اليه بقوله (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) (سبحان الذي أسرى بعبده) (وانه لما قام عبدالله يدعوه) وفى التحقيق بمعنى قوله اني عبدك التزام عبوديته من الذل والخضوع والانابة وامتثال امر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار اليه واللجأ اليه والاستعانة به والتوكل عليه وعياذ العبد به ولياذه به وان لايتعلق قلبه بغيره محبة وخوفا ورجاء : وفيه ايضاً اني عبد من جميع الوجوه صغيرا وكبيراً حيا وميتاً مطيعاً وعاصيا معافى ومبتلي بالروح والقلب واللسان والجوارح : وفيه ايضا ان مالى ونفسى ملك لك فان العبدوما

(١) الاستخذاء بالخاء المعجمة وكذلك الخذاء انكسار واسترخاء

يملك لسيده: وفيه ايضاً انك أنت الذي مننت عليّ بكل ما انا فيه من نعمة فذلك كله من انعامك على عبدك: وفيه أيضا اني لا أتصرف فيما خولتني من مالى ونفسي الا بأمرك كما لا يتصرف العبد الا باذن سيده واني لااملك لنفسي ضراً ولا نفعا ولاموتاً ولاحياة ولانشورا * فان صح له شهود ذلك فقد قال اني عبدك حقيقة: ثم قال ناصيتي بيدك اى انت المتصرف فىّ تصرفنى كيف تشاء لست انا المتصرف فى نفسي وكيف يكون له فى نفسه تصرف من نفسه بيدر به وسيده وناصيته بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله اليه سبحانه ليس الى العبد منه شيء بل هو فى قبضة سيده اضعف من مملوك ضعيف حقير ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك: ومتى شهد العبد ان ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته الى ربه وصفا لازما له ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر اليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته: ولهذا قال هود لقومه (اني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم) وقوله «ماض فيّ حكمك عدل فىّ قضاؤك» تضمن هذا الكلام أمرين: أحدهما مضاء حكمه فى عبده: والثاني يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد وهذا معنى قول نبيه هود (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) ثم قال (ان ربي علي صراط مستقيم) أى مع كونه مالكا قاهرا متصرفا فى عباده نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم: وهو العدل الذي يتصرف به فيهم فهو علي صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه: فخبره كله صدق وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة والذى نهى عنه كله مفسدة وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمتــه وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته: وفرق بين

الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء فان حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري : والنوعان نافذان فى العبد ماضيان فيه وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبي لكن الحكم الكوني لايمكنه مخالفته : وأما الديني الشرعي فقد يخالفه *

ولما كان القضاء هو الاتمام والاكمال وذلك انما يكون بعد مضيه ونفوذه قال «عدل فىّ قضاؤك» أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته فى عبدك عدل منك فيه : وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لاينفذه فان كان حكما دينيا فهو ماض فى العبد وان كان كونيا فان نفذه سبحانه مضي فيه وان لم ينفذه اندفع عنه فهو سبحانه يقضى مايقضى به وغيره قد يقضي بقضاء ويقدر أمرا ولا يستطيع تنفيذه وهو سبحانه يقضى ويمضى فله القضاء والامضاء: وقوله «عدل فيّ قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه من صحة وسقم وغني وفقر ولذة وألم وحياة وموت وعقوبة وتجاوز وغير ذلك . قال تعالي (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) فكل مايقضى علي العبد فهو عدل فيه *

﴿فان قيل﴾ فالمعصية عندكم بقضائه وقدره فما وجه العدل فى قضائها فان العدل فى العقوبة عليها ظاهر * قيل هذا سؤال له شأن ومن أجله زعمت طائفة ان العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته قالوا لان الظلم هو التصرف فى ملك الغير والله له كل شيء فلايكون تصرفه فى خلقه الاعدلا : وقالت طائفة بل العدل انه لا يعاقب على ماقضاه وقدره فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم انه ليس بقضائه وقدره فيكون العدل هو جزاؤه علي الذنب بالعقوبة والذم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر فزعموا ان من أثبت القدر لم يمكنه ان يقول بالعدل ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد واثبات الصفات فزعموا انه لا يمكنهم اثبات التوحيد الا بانكار الصفات فصار توحيدهم تعطيلا

وعدلهم تكذيباً بالقدر * وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه وهو سبحانه وان أضل من شاء وقضي بالمعصية والغيّ على من شاء فذلك محض العدل فيه لانه وضع الاضلال والخذلان في موضعه اللائق به: كيف، ومن أسمائه الحسني العدل الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالاسماع والابصار والعقول: وهذا عدله: ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه ان يعينه ويوفقه فهذا فضله: وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلي بينه وبين نفسه ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله: وهذا نوعان: أحدهما ما يكون جزاء منه للعبد على اعراضه عنه وايثار عدوه في الطاعة والموافقة عليه وتناسي ذكره وشكره فهو أهل ان يخذله ويتخلي عنه: والثاني ان لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه انه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليه ولا يثني عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله: قال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وقال (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم) فاذا قضى علي هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل كما اذا قضى علي الحية بان تقتل وعلي العقرب. وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلا فيه وان كان مخلوقا على هذه الصفة: وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير في القضاء والقدر*

والمقصود أن قوله ﷺ «ماض في حكمك عدل في قضاؤك» رد على الطائفتين القدرية الذين ينكرون عموم أقضية الله في عبده ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره ويردون القضاء الي الأمر والنهي: وعلي الجبرية الذين يقولون كل مقدور عدل فلا يبقى لقوله «عدل في قضاؤك» فائدة فان العدل عندهم كل ما يمكن

فعله والظلم هو المحال لذاته فكأنه قال ماض ونافذ فى قضاؤك : وهذا هو الأول بعينه : وقوله « أسألك بكل اسم » الي آخره توسل اليه باسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم : وهذه أحب الوسائل اليه فانها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هى مدلول اسمائه : وقوله « ان تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى » الربيع المطر الذى يحيي الأرض شبه القرآن به لحياة القلوب به وكذلك شبهه الله بالمطر وجمع بين الماء الذى تحصل به الحياة والنور الذى تحصل به الاضاءة والاشراق كما جمع بينهما سبحانه فى قوله (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما توقدون عليه فى النار ابتغاء حلية) : وفى قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم) ثم قال (أو كصيب من السماء) : وفى قوله (الله نور السموات والأرض مثل نوره) الآيات : ثم قال (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه) الآية : فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن وان ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور : قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) *

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه الى القلب لانه قد حصل لما هو أوسع منه : ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه الي الصدر ثم الى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها: ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فانها أحري أن لا تعود وأما اذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فانها تعود بذهاب ذلك : والمكروه الوارد علي القلب ان كان من أمر ماض أحدث الحزن وان كان من مستقبل أحدث الهم وان كان من أمر حاضر أحدث الغم والله أعلم *

فائدة

أنزه الموجودات وأظهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدراً وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله : ولذلك صلح لاستوائه عليه : وكل ما كان أقرب الى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه : ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش اذ هو سقفها وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق : ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير : وخلق الله القلوب وجعلها محلا لمعرفته ومحبته وارادته فهى عرش المثل الأعلي الذى هو معرفته ومحبته وارادته : قال تعالى (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) :وقال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلي فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) وقال تعالى (ليس كمثله شيء) فهذا من المثل الأعلى وهو مستوعلي قلب المؤمن فهو عرشه وان لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلي عليه معرفة ومحبة وارادة فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وارادتها والتعلق بها فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتي تعود القلوب علي قلبين . قلب هوعرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير . وقلب هو عرش الشيطان فهنالك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم فهو حزين علي مامضى مهموم بما يستقبل مغموم فى الحال . وقد روى الترمذى وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قالوا فما علامة ذلك يارسول الله قال الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله » والنور الذى يدخل القلب انما هو من آثار المثل الأعلى فلذلك ينفسح وينشرح واذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته فحظه الظلمة والضيق *

فائدة

تأمل خطاب القرآن تجد ملكا له الملك كله وله الحمد كله : أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها منه ومردها اليه مستويا على سرير ملكه لاتخفى عليه خافية فى أقطار مملكته عالما بما فى نفوس عبيده مطلعا علي أسرارهم وعلانيتهم منفردا بتدبير المملكة يسمع ويرى ويعطى ويمنع ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين ويخلق ويرزق ويميت ويحي ويقدر ويقضي ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها وصاعدة اليه لاتتحرك فى ذرة الا باذنه ولا تسقط ورقة الا بعلمه : فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه وينصح عباده ويدلهم على مافيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم ويتعرف اليهم بأسمائه وصفاته ويتحبب اليهم بنعمه وآلائه فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة ان اطاعوه وما أعد لهم من العقوبة ان عصوه ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء : ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ويذم أعداءه بسوء أعمالهم وقبيح صفاتهم : ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ويقول الحق ويهدي السبيل : ويدعو الي دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها : ويذكر عباده فقرهم اليه وشدة حاجتهم اليه من كل وجه وأنهم لاغني لهم عنه طرفة عين ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات : وانه الغنى بنفسه عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير اليه بنفسه وانه لاينال احد ذرة من الخير فما فوقها الا بفضله ورحمته ولاذرة من الشر فما فوقها الا بعدله وحكمته ويشهد من خطابه عتابه لاحبابه الطف عتاب وانه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم والدافع

عنهم والمحامى عنهم والناصر لهم والكفيل بمصالحهم والمنجى لهم من كل كرب والموفى لهم بوعده وانه وليهم الذى لاولى لهم سواه فهو مولاهم الحق ونصيرهم علي عدوهم فنعم المولى ونعم النصير : فاذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما رحيما جوادا جميلا هذا شأنه فكيف لاتحبه وتنافس فى القرب منه وتنفق أنفاسها فى التودد اليه ويكون أحب اليها من كل ماسواه ورضاه آثر عندها من رضا كل ماسواه: وكيف لاتلهج بذكره ويصير حبه والشوق اليه والأنس به هو غذائها وقوتها ودواؤها بحيث ان فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها *

فائده

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده وهذا كما انه فى الذوات والأعيان فكذلك هو فى الاعتقادات والارادات :فاذا كان القلب ممتلئا بالباطل اعتقادا ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع كما ان اللسان اذا اشتغل بالتكلم بمالا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه الا اذا فرغ لسانه من النطق بالباطل: وكذلك الجوارح اذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة الا اذا فرغها من ضدها: فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وارادته والشوق اليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وارادته وحبه والشوق الى لقائه الا بتفريغه من تعلقه بغيره: ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته الا اذا فرغها من ذكر غيره وخدمته فاذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التى لا تنفع لم يبق فيها موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه : وسر ذلك ان اصغاء القلب كاصغاء الأذن فاذا صغى الى غير حديث الله لم يبق فيه اصغاء ولا فهم لحديثه : كما اذا مال الي غير محبة الله لم يبق فيه ميل الى محبته فاذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان : ولهذا فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « لان يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتي يريه خير له من أن يمتلىء

شعراً » فبين أن الجوف يمتلىء بالشعر فكذلك يمتليء بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التي لا وجود لها والعلوم التى لا تنفع والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها : واذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذى به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولا فتعدته وجاوزته الي محل سواه كما اذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لا منفذ لها فيه فانه لا يقبلها ولا تلج فيه لكن تمر مجتازة لا مستوطنة ولذلك قيل

نزه فؤادك من سوانا تلقنا * فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا * من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

وبالله التوفيق *

فائدة

قوله تعالي (ألهاكم التكاثر) الى آخرها أخلصت هذه السورة للوعد والوعيد والتهديد وكفى بها موعظة لمن عقلها: فقوله تعالى (الهاكم) أي شغلكم علي وجه لا تعذرون فيه فان الالهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه فان كان بقصد فهو محل التكليف وان كان بغير قصد كقوله صلى الله عليه وسلم فى الخميصة « انها ألهتنى آنفا عن صلاتي » كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان : وفى الحديث « فلها صلى الله عليه وسلم عن الصبى » اى ذهل عنه : ويقال لها بالشيء اي اشتغل به ولها عنه اذا انصرف عنه : واللهو للقلب واللعب للجوارح ولهذا يجمع بينهما : ولهذا كان قوله (الهاكم التكاثر) ابلغ فى الذم من شغلكم فان العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به: فاللهو هو ذهول واعراض: والتكاثر تفاعل من الكثرة اي مكاثرة بعضكم لبعض: واعرض عن ذكر المتكاثر به ارادة لاطلاقه وعمومه وان كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله ومايعود عليه بنفع معاده فهو داخل فى هذا التكاثر: فالتكاثر فى كل شيء من مال اوجاه اور ياسة اونسوة او حديث او

علم : ولا سيما اذا لم يحتج اليه: والتكاثر فى الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها : والتكاثر ان يطلب الرجل ان يكون اكثر من غيره وهذا مذموم الا فيما يقرب الى الله فالتكاثر فيه منافسة فى الخيرات ومسابقة اليها : وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير انه « انتهى الي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فافنيت او لبست فابليت » *

تنبيه

من لم ينتفع بعينه لم ينتفع باذنه: للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس فمن هتك الستر الذى بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس : للعبد رب هو ملاقيه وبيت هو ساكنه فينبغى له ان يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله اليه * اضاعة الوقت اشد من الموت لان اضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة والموت يقطعك عن الدنيا واهلها * الدنيا من أولها الى آخرها لاتساوى غم ساعة فكيف بغم العمر * محبوب اليوم يعقب المكروه غداً ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدا * أعظم الربح في الدنيا ان تشغل نفسك كل وقت بما هو أولي بها وأنفع لها فى معادها كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة * يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه * المخلوق اذا خفته استوحشت منه وهربت منه والرب تعالى اذا خفته أنست به وقربت اليه * لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار اهل الكتاب ولو نفع العمل بلا اخلاص لما ذم المنافقين * دافع الخطرة فان لم تفعل صارت فكرة فدافع الفكرة فان لم تفعل صارت شهوة فحاربها فان لم تفعل صارت عزيمة وهمة فان لم تدافعها صارت فعلا فان لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها * التقوي ثلاث مراتب : احداها حمية القلب والجوارح عن الآثام

والمحرمات :الثانية حميتها عن المكروهات : الثالثة الحمية عن الفضول ومالا يعنى : فالاولى تعطى العبد حياته :والثانية تفيده صحته وقوته : والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته *

غموض الحق حين تذب عنه * يقلل ناصر الخصم المحق
تضل عن الدقيق فهو م قوم * فتقضى للمجل علي المدق

....

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه * لابي ولا بشفيع لى من الناس
اذا أيست وكاد اليأس يقطعني * جاءالرجامسرعامن جانب اليأس

من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ومن خلقه للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات *لماطلب آدم الخلود فى الجنة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ولما طلب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين *اذا جرى علي العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد أحدها مشهد التوحيد وان الله هو الذى قدره وشاءه وخلقه وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن: الثاني مشهد العدل وانه ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه : الثالث مشهد الرحمة وان رحمته فى هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ورحمته حشوه:الرابع مشهد الحكمة وان حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا : الخامس مشهد الحمد وان له سبحانه الحمد التام علي ذلك من جميع وجوهه : السادس مشهد العبودية وانه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه *

قلة التوفيق وفساد الرأى:وخفاء الحق وفساد القلب:وخمول الذكر:واضاعة الوقت:ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه:ومنع اجابة الدعاء:وقسوة القلب ومحق البركة فى الرزق والعمر:وحرمان العلم ولباس الذل واهانة العدو وضيق

الصدر : والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت : وطول الهم والغم : وضنك المعيشة وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والاحراق عن النار:وأضداد هذه تتولد عن الطاعة *

فصل

طوبى لمن أنصف ربه فاقر له بالجهل فى علمه والآفات فى عمله والعيوب فى نفسه والتفريط فى حقه والظلم فى معاملته * فان آخذه بذنوبه رأى عدله وان لم يؤاخذه بها رأي فضله وان عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه فان قبلها فمنة وصدقة ثانية وان ردها فلكون مثلها لايصلح ان يواجه به : وان عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وامساك عصمته عنه وذلك من عدله فيه فيرى فى ذلك فقره الى ربه وظلمه فى نفسه فان غفرها له فبمحض احسانه وجوده وكرمه * ونكتة المسألة وسرها انه لايري ربه الا محسنا ولا يرى نفسه الامسيئا أومفرطا أو مقصراً فيرى كل مايسره من فضل ربه عليه واحسانه اليه وكل مايسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه : المحبون اذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقيا لسكانها: وكذلك المحب اذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذ حسن طاعته له فى الدنيا وتودده اليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنا في تلك الأجسام البالية *

فائدة

الغيرة غيرتان غيرة علي الشيء وغيرة من الشيء فالغيرة علي المحبوب حرصك عليه والغيرة من المكروه ان يزاحمك عليه:فالغيرة على المحبوب لاتتم الا بالغيرة من المزاحم وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة فى حبه كالمخلوق واما من تحسن المشاركة فى حبه كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه فلا

يتصور غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد: والغيرة المحمودة فى حقه أن يغار المحب على محبته له ان يصرفها الى غيره أو يغار عليها ان يطلع عليها الغير فيفسدها عليه أو يغار على أعماله ان يكون فيها شيء لغير محبوبه أو يغار عليها ان يشوبها مايكره محبوبه من رياء أو إعجاب او محبة لاشراف غيره عليها أو غيبته عن شهود منته عليه فيها *

وبالجملة فغيرته تقتضى ان تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله : وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت فى غير رضى محبوبه فهذه الغيرة من جهة العبد وهى غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه : وأما غيرة محبوبه عليه فهى كراهية ان ينصرف قلبه عن محبته الى محبة غيره بحيث يشاركه فى حبه ولهذا كانت غيرة الله ان يأتى العبد ماحرم عليه ولاجل غيرته سبحانه حرم الفاحشة ماظهر منها وما بطن لان الخلق عبيده واماؤه فهو يغار على امائه كما يغار السيد على جواريه ولله المثل الأعلى . ويغار على عبيده ان تكون محبتهم لغيره بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيل الفاحشة منها *

من عظم وقار الله في قلبه ان يعصيه وقره الله فى قلوب الخلق ان يذلوه * اذا علقت شروش(١) المعرفة فى أرض القلب نبتت فيه شجرة المحبة فاذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة فلا تزال الشجرة تؤتي أكلها كل حين باذن ربها * اول منازل القوم اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا: وأوسطها هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور: وآخرها تحيتهم يوم يلقونه سلام : أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها فان غرست شجرة الايمان والتقوى أورثت حلاوة الابد وان غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر. ارجع الى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولا تشرد عنه من هذه الأربعة فما رجع من رجع اليه بتوفيقه الا منها وما شرد من شرد عنه بخذلانه الا منها فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه *

---

(١) هكذا الاصل ولم أجده فى المعاجم : وهو في عرف اهل الشام اصل الشيء وجذره .

مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه وكذلك تداعى المعاصي فليتدبر اللبيب هذا المثال : فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها * ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره اليه انما العجب من مالك يتحبب الى مملوكه بصنوف انعامه ويتودد اليه بأنواع احسانه مع غناه عنه

كفى بك عزا انك له عبد * وكفى بك فخراً انه لك رب

فصل

اياك والمعاصي فانها ازلت عز (اسجدوا) وأخرجت اقطاع (اسكن) يالها لحظة أثمرت حرارة القلق الف سنة مازال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص ويرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع فتاب عليه : فرح ابليس بنزول آدم من الجنة وما علم أن هبوط الغائص فى اللجة خلف الدر صعود : كم بين قوله لآدم (اني جاعل فى الارض خليفة) وقوله لك (اذهب فمن تبعك منهم) ما جرى علي آدم هو المراد من وجوده لو لم تذنبوا: يا آدم لا تجزع من قولى لك (اخرج منها) فلك ولصالح ذريتك خلقتها: يا آدم كنت تدخل على دخول الملوك علي الملوك واليوم تدخل علىّ دخول العبيد علي الملوك : يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب والبست خلعة العبودية وعسي أن تكرهوا : يا آدم لم أخرج اقطاعك الي غيرك انما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك وليبعث الي العمال نفقة تتجافى جنوبهم : تالله ما نفعه عند معصيته عز (اسجدوا) ولا شرف (وعلم آدم) ولا خصيصة (لما خلقت بيديّ) ولا فخر (ونفخت فيه من روحى) وانما انتفع بذل (ربنا ظلمنا أنفسنا) لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه في غير مقتل

فجرحه فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة(١)*

فصل

نجائب النجاة مهيأة للمراد وأقدام المطرود موثوقة بالقيود : هبت عواصف الأقدار فى بيداء الاكوان فتقلب الوجود ونجم الخير فلما ركدت الريح اذا أبو طالب غريق فى لجة الهلاك : وسلمان (٢) علي ساحل السلامة : والوليد بن

(١) القلبة بفتح القاف واللام الألم والعلة

(٢) هو الفارسي ويعرف بسلمان الخير مولي رسول الله صلي الله عليه وسلم . وسبب اسلامه ما ذكره العلامة ابن الاثير في أسد الغابة وغيره عن ابن عباس. قال حدثني سلمان قال كنت رجلا من أهل فارس من اصبهان من جى ابن رجل من دهاقينها وكنت أحب الخلق اليه فاجلسني فى البيت كالجوارى فاجتهدت في الفارسية وفى رواية في المجوسية فكنت في النار التى توقد فلا تخبو وكان ابي صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه فقال لى يوما يابني قد شغلني ما ترى فانطلق الي الضيعة ولا تحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك فخرجت لذلك فررت بكنيسة النصاري وهم يصلون فلت اليهم وأعجبني أمرهم وقلت هذا والله خير من ديننا فاقمت عندهم حتى غابت الشمس لا انا اتيت الضيعة ولا رجعت اليه فاستبطأني وبعث رسلا في طلبي وقد قلت للنصاري حين أعجبني أمرهم أين أصل هذا الدين قالوا بالشام فرجعت الى والدي فقال يا بني بعثت اليك رسلا فقلت مررت بقوم يصلون في كنيسة فأعجبنى ما رأيت من أمرهم وعلمت أن دينهم خير من ديننا فقال يا بني دينك ودين آبائك خير من دينهم فقلت كلا والله فخافني وقيدنى فبعثت الى النصاري وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم وسألتهم اعلامى من يريد الشام ففعلوا فالقيت الحديد من رجلى وخرجت معهم حتي أتيت الشام فسألتهم عن عالمهم فقالوا الاسقف فأتيته فأخبرته وقلت اكون معك اخدمك واصلى معك قال اقم فكنت مع رجل سوء فى دينه كان يأمرهم بالصدقة فاذا أعطوه أمسك لنفسه

حتي جمع سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا فتوفي فاخبرتهم بخبره فزبروني فدللتهم علي ماله فصلبوه ولم يغيبوه ورجموه وأجلسوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهدا ورغبة فى الآخرة وصلاحا فألقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة فقلت أوصني فذكر رجلا بالموصل وكنا علي أمر واحد حتى هلك فأتيت الموصل فلقيت الرجل فاخبرته بخبرى وان فلانا أمرنى باتيانك فقال أقم فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة فقلت له أوصنى فقال ما اعرف أحداً علي ما نحن عليه الا رجلا بعمورية فأتيته بعمورية فاخبرته بخبرى فأمرني بالمقام وثاب لى شيء واتخذت غنيمة و بقيرات فحضرته الوفاة فقلت الى من توصي بي فقال لا أعلم أحدا اليوم علي مثل ما كنا عليه ولكن قد أظلك نبى يبعث بدين ابراهيم الحنيفية مهاجره بارض ذات نخل وبه آيات وعلامات لا تخفى بين منكبيه خاتم النبوة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فان استطعت فتخلص اليه فتوفي فمر بي رجل من العرب من كلب فقلت اصحبكم واعطيكم بقراتى وغنمي هذه وتحملونى الى بلادكم فحملونى الي وادى القرى فباعوني من رجل من اليهود فرأيت النخل فعلمت أنه البلد الذى وصف لى فأقمت عند الذي اشترانى وقدم عليه رجل من بنى قريظة فاشتراني منه وقدم بى المدينة فعرفتها بصفتها فاقمت معه أعمل في نخله وبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة فنزل فى بنى عمرو بن عوف فاني لفى رأس نخلة اذ أقبل ابن عم لصاحبى فقال اى فلان قاتل الله بنى قيلة مررت بهم آنفا وهم مجتمعون علي رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبى فوالله ما هو الا ان سمعتها فاخذنى القر ورجفت بي النخلة حتى كدت أن اسقط ونزلت سريعا فقلت ما هذا الخبر فلكمني صاحبي لكمة وقال وما أنت وذاك أقبل علي شأنك فاقبلت على عملى حتي أمسيت فجمعت شيئاً فأتيته به وهو بقباء عند أصحابه فقلت اجتمع عندى اردت أن أتصدق به فبلغنى انك رجل صالح ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة فرأيتكم أحق به فوضعته بين يديه فكف يده وقال لاصحابه كلوا فأكلوا فقلت هذه واحدة ورجعت وتحول الي المدينة فجمعت شيئاً فأتيته به فقلت أحببت كرامتك فأهديت لك هدية وليست بصدقة فمد يده فأكل وأكل أصحابه فقلت هاتان اثنتان ورجعت فأتيته وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد وحوله أصحابه فسلمت وتحولت انظر الى

المغيرة(١)يقدم قومه فى التيه : وصهيب قد قدم بقافلة الروم(٢):والنجاشي في أرض

الخاتم في ظهره فعلم ما أردت فالقي رداءه نرأيت الخاتم فقبلته وبكيت فأجلسني بين يديه فحدثته بشأني كله كما حدثتك يابن عباس فاعجبه ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه ففاتني معه بدر وأحد بالرق فقال لي كاتب يا سلمان عن نفسك فلم ازل بصاحبي حتى كاتبته علي أن أغرس له ثلثمائة ودية وعلى أربعين أوقية من ذهب فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم اعينوا اخاكم بالنخل فاعانونى بالخمس والعشر حتى اجتمع لي فقال لى نقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدي ففعلت فاعانتى أصحابى حتى فرغت فأتيته فكنت آتية بالنخلة فيضعها ويسوى عليها ترابا فانصرف والذى بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة وبقي الذهب فبينما هو قاعد اذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب فلو وزنت بأحد لكانت اثقل منه * وقد ورد فى مناقبه احاديث كثيرة منها أن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم قال ان الجنة تشتاق الى ثلاثة على وعمار وسلمان . وقالت عائشة رضي الله عنها كان لسلمان مجلس من رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم بالليل حتي كاد يغلبنا على رسول الله : وسئل على رضى الله عنه عن سلمان فقال علم العلم الاول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزف وهو منا أهل البيت . توفي سنة ست وثلاثين عاش سلمان رضي الله عنه ثلاثمائة وخمسين سنة فكان من المعمرين . والله أعلم

(١) هو بن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد ولما أسلم حبسه اخواله فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو له في القنوت كما ثبت في الصحيح «اللهم أنج الوليد بن الوليد والمستضعفين من المؤمنين ثم افلت من أسرهم ولحق بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم : ويقال انه مشي علي رجليه لما هرب وطلبوه فلم يدركوه ويقال إنه مات ببئر أبى عتبة قبل أن يدخل المدينة .

(٢) هو صهيب بن سنان بن مالك كناه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بابي يحيي وسمى بالرومى لان الروم سبوه صغيرا وكان أبوه وعمه عاملين لكسري علي الابلة وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل فاغارت عليهم الروم فاخذت صهيباً وهو صغير فنشأ بالروم نصار ألكن فابتاعته منهم كلب ثم قدموا به مكة فاشتراه عبدالله

الحبشة (١) يقول لبيك اللهم لبيك : وبلال ينادى الصلاة خير من النوم (٢) :

ابن جدعان فاعتقه فاقام معه الى أن هلك ولما بعث رسول الله أسلم وكان من السابقين الاولين الى الاسلام وكان من المستضعفين بمكة الذين عذبوا في الله عز وجل . وشهد صهيب بدرا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . روى عن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم « السباق أربعة أناسابق العرب وصهيب سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبش . والله أعلم

(١) النجاشي لقب علي من ملك الحبشة واسمه أصحمة بن أبحر النجاشي : واسمه بالعربية عطية أسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يهاجر اليه وكان ردأ للمسلمين نافعا . وقصته مشهورة فى احسانه الى المسلمين الذين هاجروا اليه في صدر الاسلام وقد صلى عليه النبي صلي الله عليه وآله وسلم وأصحابه جماعة يوم مات وقال صلي الله عليه وآله وسلم قد مات اليوم عبد صالح يقال له أصحمة . وعن عائشة لما مات النجاشي كنا نتحدث أنه لا يزال يرى علي قبره نور . والله أعلم

(٢) هو مؤذن رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه من المشركين لما كانوا يعذبونه علي التوحيد وكان لبعض بني جمح مولد من مولديهم واسم أمه حمامة وكان أمية بن خلف يخرجه اذا حميت الظهيرة فيطرحه علي ظهره فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة علي صدره ثم يقول لا يزال علي ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد فيقول وهو في ذلك أحد أحد فمر به أبو بكر فاشتراه منه بعبد له أسود جلد . ومات رضي الله عنه بالشام في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فانظر أيها المتأمل الي من هذا حاله ولم يقصد الا وجه الله تعالى وصبر على هذا العذاب الاليم وليكن لك قدوة وأسوة في المجاهدة فى الدين والذب عنه ولا تغتر بما حصل من بعض المارقين الملحدين لشهوة نفسية وحب جاه واشتهار بين الناس ليقال فيه ما يقال اللهم احفظنا من زلات القلم ووساوس الشيطان وغلبة النفس الامارة بالسوء والاغترار بالعلم وحب المحمدة .

وأبوجهل في رقدة المخالفة :لما قضى في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب الا القيد وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه وبه أجاب فرعون موسى (لئن اتخذت الها غيرى) وبه أجاب الجهمية الامام احمد لما عرضوه علي السياط:وبه أجاب أهل البدع شيخ الاسلام حين استودعوه السجن (وها نحن علي الاثر) فنزل به ضيف (ولنبلونكم) فنال باكرامه مرتبة « سلمان منا أهل البيت » فسمع ان ركبا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو ادراك مطلب السعادة فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود فوقف نفسه على خدمة الادلاء وقوف الاذلاء فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا اليه اعلام الأعلام على نبوة نبينا وقالوا ان زمانه قد أظل فاحذر ان تضل فرحل مع رفقة لم يرفقوا به (فشروه بثمن بخس دراهم معدودة) فابتاعه يهودى بالمدينة فلما رأي الحرة توقد حراً شوقه ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل فبينا هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير وسلمان فى رأس نخلة وكاد القلق يلقيه لولا ان الحزم أمسكه كما جري يوم (إن كادت لتبدى به لولا ان ربطنا علي قلبها) فعجل النزول لتلقى ركب البشارة ولسان حاله يقول :

خليليّ من نجد قفا بي على الربا * فقد هب من تلك الديار نسيم

فصاح به سيده مالك انصرف الي شغلك فقال

كيف انصرافى ولي فى داركم شغل

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش(١)

خليلي لا والله ما انا منكما * اذا علم من آل ليلي بداليا

---

(١) قال الازهرى رجل أطروش : قال ولا أدري اعربى أم دخيل :

فلما لقى الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه يا محمدانت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان: ابو طالب اذا سئل عن اسمه قال عبد مناف واذا انتسب افتخر بالآباء واذا ذكرت الأموال عبد الابل: وسلمان اذا سئل عن اسمه قال عبد الله: وعن نسبه قال ابن الاسلام: وعن ماله قال الفقر وعن حانوته قال المسجد: وعن كسبه قال الصبر وعن لباسه قال التقوى والتواضع: وعن وساده قال السهر وعن فخره قال سلمان منا: وعن قصده قال يريدون وجهه وعن سيره قال الى الجنة: وعن دليله فى الطريق قال إمام الخلق وهادى الائمة *

اذا نحن ادلجن وانت امامنا * كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا
وان نحن اضللنا الطريق ولم نجد * دليلا كفانا نور وجهك هاديا

الذنوب جراحات ورب جرح وقع فى مقتل * لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له * دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك * اذا عرضت نظرة لا تحل فاعلم أنها مسعر حرب فاستتر منها بحجاب (قل المؤمنين) فقد سلمت من الاثر وكفى الله المؤمنين القتال * بحر الهوي اذا مد اغرق واخوف المنافذ على السابح فتح البصر فى الماء *

ما أحد أكرم من مفرد * فى قبره أعماله تونسه
منعما فى القبر في روضة * ليس كعبد قبره محبسه

علي قدر فضل المرء تأتي خطوبه * ويعرف عند الصبر فيما يصيبه
ومن قل فيما يتقيه اصطباره * فقد قل مما يرتجيه نصيبه

كم قطع زرع قبل التمام فما ظن الزرع المستحصد: اشتر نفسك فالسوق قائمة والثمن موجود: لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوي ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون دنا الصباح: نور العقل يضيء فى ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير فى ذلك النور عواقب الأمور: اخرج بالعزم من هذا

الفناء (١) الضيق المحشو بالآفات الي ذلك الفناء الرجب الذى فيه مالا عين رأت فهناك لايتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب * يابائعاً نفسه بهوى من حبه ضنا ووصله أذي:وحسنه الىفنا لقد بعت انفس الأشياء بثمن بخس كأنك لم تعرف قدر السلعة ولاخسة الثمن حتي اذا قدمت يوم التغابن تبين لك الغبن في عقد التبايع : لااله الا الله سلعة الله مشتريها وثمنها الجنة والدلال الرسول ترضي ببيعها بجزء يسير ممالايساوى كله جناح بعوضة

اذا كان شيء لايساوي جميعه * جناح بعوض عندمن صرت عبده
ويملك جزء منه كلك ما الذى * يكون علي ذا الحال قدرك عنده
وبعت به نفسا قد استامها بما * لديه من الحسنى وقدزال وده

يامخنث العزم اين انت والطريق طريق تعب فيه آدم : وناح لاجله نوح : ورمى فى النار الخليل : واضجع للذبح اسماعيل : وبيع يوسف بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين : ونشر بالمنشار زكريا : وذبح السيد الحصور يحيى : وقاسي الضر أيوب : وزاد علي المقدار بكاء دواد : وسار مع الوحش عيسي : وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ تزها انت باللهو واللعب

فيادارها بالحزن ان مزارها * قريب ولـكن دون ذلك أهوال

الحرب قائمة وأنت اعزل فى النظارة(٢)فان حركت ركابك فللهزيمة*من لم يباشر حر الهجير فى طلاب المجد لم يقل فى ظلال الشرف

تقول سليمى لو أقمت بارضنا * ولم تدراني للمقام اطوف

قيل لبعض العباد الى كم تتعب نفسك فقال راحتها أريد * يامكرما بحلة

---

(١) الفناء بكسر الفاء المتسع امام الدار ويجمع علي أفنية (٢) اي تتنزه في الرياض والبساتين

الايمان بعد حلة العافية وهو يخلقهما فى مخالفة الخالق لا تنكر السلب (١) يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره ان يسلبها * عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ليبلوهم ايهم يؤثرهن علي عرائس الآخرة فمن عرف قدر التفاوت آثر ما ينبغى ايثاره

وحسان الكون لما أن بدت * اقبلت نحوى وقالت لي الى
فتعاميت كأن لم أرها * عند ما ابصرت مقصودي لدي

كواكب همم العارفين فى بروج عزائمهم سيارة ليس فيها زحل * يامن انحرف عن جادتهم كن فى أواخر الركب ونم اذا نمت علي الطريق فالأمير يراعى الساقة * قيل للحسن سبقنا القوم على خيل دهم ونحن علي حمر معقرة فقال ان كنت علي طريقهم فما أسرع اللحاق بهم *

فائدة

من فقد أنسه بالله بين الناس ووجده فى الوحدة فهو صادق ضعيف : ومن وجده بين الناس وفقده فى الخلوة فهو معلول : ومن فقده بين الناس وفى الخلوة فهو ميت مطرود : ومن وجده فى الخلوة وفى الناس فهو المحب الصادق القوى فى حاله: ومن كان فتحه فى الخلوة لم يكن مزيده الا منها : ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وارشادهم كان مزيده معهم : ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفي أي شيء استعمله كان مزيده فى خلوته ومع الناس : فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه * مصابيح القلوب الطاهرة فى أصل الفطره منيرة قبل

(١) السلب مفعول تنكر وجملة يستحق تعليل للجملة قبلها وفاعل يستحق من استعمل وقوله أن يسلبها مفعول يستحق *

الشرائع يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار * وحد قس (١) وما رأي الرسول وكفر ابن أبي وقد صلى معه في المسجد * مع الصب ري ولا ماء وكم من عطشان في اللجة * سبق العلم بنبوة موسى وايمان آسية فسيق تابوته الي بيتها فجاء طفل منفرد عن أم الى امرأة خالية عن ولد : فلله كم في هذه القصة من عبرة : كم ذبح فرعون في طلب موسي من ولد ولسان القدر يقول لا نربيه الا في حجرك *

(١) كان قس بن ساعدة مؤمنا بالله مبشراً برسوله يضرب به المثل في الفصاحة والخطابة فيقال أبلغ من قس وهو بضم القاف وتشديد السين المهملة . ومما روي أنه لما قدم وفد بكر علي رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم سألهم عن رجل كان فيهم نازلا يقال له قس بن ساعدة الايادي قالوا هلك فقال رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم لقد رأيته بعكاظ يخطب علي جمل له أورق وهو يقول أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ليل موضوع وسقف مرفوع ونجوم تغور وبحر يمور أما بعد فان في السماء لخبراً وان في الارض لعبراً مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا بالاقامة فأقاموا أم تركوا كما هم فناموا أقسم بالله قس قسماً حقا فما حنث ولا أثم ان لله ديناً هو أرضى من ديننا هذا الذى نحن عليه ثم قال أبياتاً ما أحفظها فقال رجل من الانصار أنا شاهد يارسول الله بأبي أنت وأمي قال فأنشدنا قال سمعته يقول :

في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي ولا * يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وفي رواية بعد أن أخبر النبي صلي الله عليه وسلم قال رحم الله قسا إني لارجو أن يبعثه الله أمة وحده *

كان ذو البجادين(١) يتيما فى الصغر فكفله عمه فنازعته نفسه الى اتباع الرسول فهم بالنهوض فاذا بقـية المرض مانعة فقعد ينتظر العم فلما تكاملت صحته نفذ الصبر فناداه ضمير الوجد :

الي كم حبسها تشكو المضيقا * أثرها ربما وجدت طريقا

فقال ياعم طال انتظاري لاسلامك وما أرى منك نشاطًا فقال والله لئن أسلمت لانتزعن كل ما أعطيتك فصاح لسان الشوق نظرة من محمد أحبّ الي من الدنيا وما فيها

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها * تريد أم الدنيـا وما فى طواياها
لقال تراب من غبـار نعالها * ألذ الى نفسى وأشفى لبلواها

فلما تجرد للسير الي الرسول جرده عمه من الثياب فناولته الأم بجادا فتطعه لسفر الوصل نصفين أتزر بأحدهما وارتدى بالآخر فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون فى ساقة الأحباب والمحب لا يرى طول الطريق لان المقصود يعينه

ألا بلـغ الله الحمى من يريده * وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه نزل الرسول يمهد له لحده وجعل يقول اللهم اني أمسيت عنه راضياً فارض عنه فصاح ابن مسعود ياليتنى كنت صاحب القبر *

فيا مخنث العزم أقل ما فى الرقعة البيذق فلما نهض تفرزن (٢) * رأى بعض

---

(١) اسمه عبد الله بن عبد نهم وسبب تسميته بذلك أنه لما أراد المصير الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعت أمه بجاداً لها قطعتين فارتدي باحداهما واتزر بالاخرى فسماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك : والبجاد الكساء

(٢) الفرزن هو بمنزلة الوزير للسلطان . والبيذق بالذال المعجمة وقيل بالدال المهملة وهو بمنزلة العساكر وكلاهما من آلات الشطرنج معروف عند أهل اللعب به : ومنه قولهم تفرزن البيدق صار فرزانا . والمعنى ظاهر أن الانسان اذا نهض وجد في التحصيل ادرك معالي الامور وساد

الحكماء برذونا يسقى عليه فقال لو هملج هذا لركب * اقدام العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها سد القواطع : القواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب فاذا خضتها انقلبت أعوانا لك توصلك الى المقصود *

فصل

الدنيا كامرأة بغى لاتثبت مع زوج انما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها فلا ترضي بالدياثة

ميزت بين جمالها وفعالها * فاذا الملاحة بالقباحة لا تفى
حلفت لنا ان لاتخون عهودنا * فكأنها حلفت لنا ان لا تفى

السير فى طلبها سير فى أرض مسبعة . والسباحة فيها سباحة فى غدير التمساح: المفروح به منها هو عين المحزون عليه: آلامها متولدة من لذاتها وأحزانها من افراحها *

مآرب كانت فى الشباب لأهلها * عذابا فصارت فى المشيب عذابا

طائر الطبع يرى الحبة وعين العقل ترى الشرك غير أن عين الهوى عميا

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * كما أن عين السخط تبدى المساويا

تزخرفت الشهوات لأعين الطباع فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب ووقع تابعوها فى بيداء الحسرات ف (اؤلئك على هدى من ربهم واؤلئك هم المفلحون) وهؤلاء يقال لهم (كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون) : لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلبا لحياة الأبد لما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم فى زمن البطالة فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد وكلما أمرّت لهم الحياة حلى لهم تذكر (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) *

وركب سروا والليل ملق رواقه * على كل مغبر المطالع قاتم
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها * فصار سراهم فى ظهور العزائم

تريهم نجوم الليـل ما يتبعونه * على عاتق الشعرى وهام النعائم
اذا اطردت فى معرك الجد قصفوا * رماح العطايا فى صدور المكارم

فصل

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه : وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الاجابة : وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره : وان تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له : وأن تذوق ألم الوحشـة فى معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته . وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض فى غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق الى انشراح الصدر بذكره ومناجاته : وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه الى نعيم الاقبال عليه والانابة اليـه : وأعجب من هذا علمك انك لا بد لك منه وانك أحوج شيء اليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب *

فائدة

ما أخذ العبد ما حرم عليه الا من جهتين : احداهما سوء ظنه بربه وانه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرا منه حلالا . والثانية ان يكون عالما بذلك وان من ترك لله شيئا أعاضه خيرا منه ولـكن تغلب شهوته صبره وهواه عقله فالأول من ضعف علمه والثاني من ضعف عقـله وبصيرته * قال يحي بن معاذ من جمع الله عليه قلبه فى الدعاء لم يرده * قلت اذا اجتمع عليه قلبه وصدقت ضرورته وفاقته وقوي رجاؤه فلا يكاد يرد دعاؤه *

فصل

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها وخداع الامل لاربابه وتملك الشيطان وقياد النفوس رأوا الدولة للنفس الامارة لجأوا الى حصن التضرع والالتجاء كما

يأوي العبد المذعور الي حرم سيده: شهوات الدنيا كلعب الخيال ونظر الجاهل مقصور على الظاهر فاماذو العقل فيرى ماوراء الستر: لاح لهم المشتهى فلما مدوا أيدى التناول بان لابصار البصائر خيط الفخ فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا الى الرحيل الثاني (ياليت قومي يعلمون) تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمروا للسير فى سواء السبيل فالناس مشتغلون بالفضلات وهم فى قطع الفلوات وعصافير الهوي فى وثاق الشبكة ينتظرون الذبح · وقع ثعلبان فى شبكة فقال أحدهما للآخر أين الملتقى بعد هذا . فقال بعد يومين فى الدباغة . تالله ما كانت الأيام الا مناما فاستيقظوا وقد حصلوا على الظفر · مامضى من الدنيا أحلام وما بقى منها أماني والوقت ضائع بينهما *

كيف يسلم من له زوجة لاترحمه : وولد لايعذره : وجار لايأمنه : وصاحب لاينصحه : وشريك لاينصفه : وعدو لاينام عن معاداته : ونفس أمارة بالسوء ودنيا متزينة : وهوي مرد : وشهوة غالبة له : وغضب قاهر : وشيطان مزين : وضعف مستول عليه فان تولاه الله وجذبه اليه انقهرت له هذه كلها وان تخلى عنه ووكله الى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة *

لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة اليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا الى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ عرض لهم من ذلك فساد فى فطرهم وظلمة فى قلوبهم وكدر فى افهامهم ومحق فى عقولهم وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم حتي ربي فيها الصغير وهرم عليها الكبير فلم يروها منكراً فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل : والهوي مقام الرشد : والضلال مقام الهدى : والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم : والرياء مقام الاخلاص : والباطل مقام الحق : والكذب مقام الصدق : والمداهنة مقام النصيحة . والظلم مقام العدل فصارت الدولة

والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار اليهم وكانت قبل ذلك لاضدادها وكان أهلها هم المشار اليهم *

فاذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت وراياتها قد نصبت وجيوشها قد ركبت فبطن الارض والله خير من ظهرها: وقلل الجبال خير من السهول: ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس *

اقشعر الارض وأظلمت السماء وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة: وذهبت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة . وبكي ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات الى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبايح وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه ومؤذن بليل بلاء قد ادلهم ظلامه فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح مادامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد غلق وبالجناح وقد علق (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون) *

اشتر نفسك اليوم فان السوق قائمة والثمن موجود والبضائع رخيصة وسيأتي على تلك السوق والبضايع يوم لا تصل فيها الى قليل ولا كثير ذلك يوم التغابن يوم يعض الظالم على يديه *

اذا انت لم ترحل بزاد من التقى * وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت علي ان لا تكون كمثله * وانك لم ترصد كما كان ارصدا

العمل بغير اخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه *

اذا حملت علي القلب هموم الدنيا واثقالها وتهاونت بأوراده التي هي قوته وحياته كنت كالمسافر الذي يحمل دابته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها فما أسرع ما تقف به *

ومشتت العزمات ينفق عمره * حيران لا ظفر ولا اخفاق

هل السائق العجلان يملك امره * فما كل سير اليعملات وحيد
رويدا باخفاف المطى فانما * تداس جباه تحتها وخدود

من تلمح حلاوة العافية هان عليه مرارة الصبر : الغاية اول فى التقدير آخر فى الوجود مبدأ فى نظر العقل منتهى فى منازل الوصول:الفت عجز العادة فلو علت بك همتك ربا المعالي لاحت لك انوار العزائم . انما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور . تزول همة الكساح دلاه فى جب العذرة · بينك وبين الفائزين جبل الهوى نزلوا بين يديه ونزلت خلفه فاطو فضل منزل تلحق بالقوم .الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفي السابق والناس فى المضمار بين فارس وراجل واصحاب حمر معقرة ·

سوف ترى اذا انجلى الغبار * أفرس تحتك أم حمار

فى الطبع شره والحمية أوفق · لص الحرص لا يمشي الا فى ظلام الهوي . حبة المشتهى تحت فخ التلف فتفكر الذبح وقد هان الصبر · قوة الطمع في بلوغ الأمل توجب الاجتهاد فى الطلب وشدة الحذر من فوت المأمول . البخيل فقير لا يؤجر علي فقره · الصبر علي عطش الضر ولا الشرب من شرعة من · تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها . لا تسأل سوي مولاك فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه : غرس الخلوة يثمر الأنس . استوحش مما لا يدوم معك واستأنس بمن لا يفارقك · عزلة الجاهل فساد واما عزلة العالم فمعها حذاؤها وسقاؤها · اذا اجتمع العقل واليقين فى بيت العزلة واستحضر الفكر وجرت بينهم مناجاة *

اتاك حديث لا يمل سماعه * شهى الينا نثره ونظامه
اذا ذكرته النفس زال عناؤها * وزال عن القلب المعني ظلامه

اذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تلحقها بمثلها تلقحها ونسل الخصام نسل مذموم . حميتك لنفسك أثر الجهل بها فلو عرفتها حق معرفتها اعنت الخصم عليها . إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب ابتدأت باحراق القادح . اوثق

غضبك بسلسلة الحلم فانه كلب إن أفلت اتلف . من سبقت له سابقة السعادة دل علي الدليل قبل الطلب . اذا اراد القدر شخصاً بذر فى أرض قلبه بذر التوفيق ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ثم أقام عليه باطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم فاذا الزرع قائم علي سوقه * اذا طلع نجم الهمة فى ظلام ليل البطالة وردفه قمر العزيمة أشرقت أرض القلب بنور ربها* اذا جن الليل تغالب النوم والسهر فالخوف والشوق فى مقدم عسكر اليقظة والكسل والتواني فى كتيبة الغفلة فاذا حمل العزم حمل علي الميمنة وانهزمت جنود التفريط فما يطلع الفجر الا وقد قسمت السهمان وبردت الغنيمة لاهلها * سفر الليل لا يطيقه الا مضمر المجاعة النجائب فى الأول وحاملات الزاد فى الأخير * لا تسأم من الوقوف علي الباب ولو طردت ولا تقطع الاعتذار ولو رددت فان فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية وابسط كف (وتصدق علينا) * يا مستفتحا باب المعاش بغير إقليد التقوي كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق * لو وقفت عند مراد التقوي لم يفتك مراد * المعاصي سد فى باب الكسب وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه*

تالله ما جئتكم زائرا * الا وجدت الارض تطوي لى

ولا انثني عزمى عن بابكم * الا تعثرت باذيالى

الأرواح فى الأشباح كالاطيار فى الابراج وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيء للسباق * من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأى شغل يشغله * كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا فان الولد يتبع الأم * الدنيا لا تساوي نقل أقدامك اليها فكيف تعدو خلفها * الدنيا جيفة والأسد لا يقع علي الجيف * الدنيا مجاز والآخرة وطن والأوطار انما تطلب فى الأوطان *

الاجتماع بالاخوان قسمان: احدهما اجتماع علي مؤانسة الطبع وشغل الوقت فهذا

مضرته أرجح من منفعته وأقل ما فيه انه يفسد القلب ويضيع الوقت . الثاني الاجتماع بهم علي التعاون علي أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ولكن فيه ثلاث آفات: احداها تزين بعضهم لبعض: الثانية الكلام والخلطة أكثر من الحاجة . الثالثة ان يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود . وبالجملة فالاجتماع والخلطة لقاح اما للنفس الأمارة واما للقلب والنفس المطمئنة والنتيجة مستفادة من اللقاح فمن طاب لقاحه طابت ثمرته وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك والخبيثة لقاحها من الشيطان وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات وعكس ذلك *

قاعدة

ليس في الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير بل لا يؤثر سبب البتة الا بانضمام سبب آخر اليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره هذا فى الأسباب المشهودة بالعيان: وفى الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس فى الحيوان والنبات فانه موقوف علي أسباب أخر من وجود محل قابل وأسباب أخر تنضم الى ذلك السبب . وكذلك حصول الولد موقوف علي عدة أسباب غير وطء الفحل: وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلي غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره علي غيره الا الله الواحد القهار فلا ينبغى أن يرجى ولا يخاف غيره وهذا برهان قطعى على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل فانه لو فرض ان ذلك سبب مستقل وحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه فليس له من نفسه قوة يفعل بها فانه لا حول ولا قوة الا بالله فهو الذى بيده الحول كله والقوة كلها فالحول والقوة التي يرجى لاجلهما المخلوق ويخاف انما هما لله وبيده فى الحقيقة فكيف يخاف ويرجى من لا حول له ولا قوة بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه فانه على قدر خوفك من

غير الله يسلط عليك وعلي قدر رجائك لغيره يكون الحرمان: وهذا حال الخلق أجمعه وان ذهب عن أكثرهم علما وحالا فما شاء الله كان ولا بد وما لم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة *

التوحيد مفزع اعدائه واوليائه فاما اعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذاهم يشركون) . وأما أولياؤه فينجيهم به من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها . ولذلك فزع اليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات وفزع اليه اتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون فى الدنيا وما أعد لهم فى الآخرة: ولما فزع اليه فرعون عند معاينة الهلاك وادراك الغرق له لم ينفعه لان الايمان عند المعاينة لا يقبل هذه سنة الله فى عباده فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النون التي ما دعابها مكروب الا فرج الله كربه بالتوحيد فلا يلقى فى الكرب العظام الا الشرك ولا ينجى منها الا التوحيد فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها وبالله التوفيق *

فائدة

اللذة تابعة للمحبة تقوى بقوتها وتضعف بضعفها فكلما كانت الرغبة فى المحبوب والشوق اليه أقوى كانت اللذة بالوصول اليه أتم: والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به: فكلما كان العلم به اتم كانت محبته أكمل فاذا رجع كمال النعيم فى الآخرة وكمال اللذة الى العلم والحب فمن كان يؤمن بالله واسمائه وصفاته ودينه أعرف كان له أحب وكانت لذته بالوصول اليه ومجاورته والنظر الي وجهه وسماع كلامه أتم: وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالاضافة الى ذلك كقطرة فى بحر فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام علي لذة عظيمة دائمة ابدا لآباد: وكمال العبد بحسب هاتين القوتين العلم والحب وافضل العلم العلم بالله وأعلى الحب الحب له وأكمل اللذة بحسبهما والله المستعان *

قاعدة

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه الا بحبسين : حبس قلبه فى طلبه ومطلوبه . وحبسه عن الالتفات الى غيره وحبس لسانه عما لا يفيد . وحبسه علي ذكر الله وما يزيد فى ايمانه ومعرفته . وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن الي أوسع فضاء وأطيبه ومتي لم يصبر على هذين الحبسين وفر منهما الى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا : فكل خارج من الدنيا اما متخلص من الحبس واما ذاهب الي الحبس وبالله التوفيق *

ودّع ابن عون رجلا فقال عليك بتقوى الله فان المتقى ليست عليه وحشة* وقال زيد بن أسلم كان يقال من اتقى الله أحبه الناس وان كرهوا *وقال الثورى لابن أبي ذئب ان اتقيت الله كفاك الناس وان اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئا : وقال سليمان بن داود أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا فلم نجد شيئا أفضل من تقوي الله فى السر والعلانية: والعدل فى الغضب والرضا : والقصد فى الفقر والغنى * وفى الزهد للامام احمد أثر الهى « مامن مخلوق اعتصم بمخلوق دوني الا قطعت أسباب السموات والأرض دونه فان سألنى لم أعطه وان دعاني لم أجبه وان استغفرني لم أغفر له وما من مخلوق اعتصم بي دون خلقي الا ضمنت السموات والأرض رزقه فان سألنى أعطيته وان دعاني أجبته وان استغفرني غفرت له »

فائدة جليلة

جمع النبي ﷺ بين تقوي الله وحسن الخلق لان تقوي الله يصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه : فتقوى الله توجب له محبة الله : وحسن الخلق يدعو الناس الي محبته *

فائدة جليلة

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين خطوة عن نفسه وخطوة عن الخلق فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله فلا يلتفت الا الى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة اليه *

صاح بالصحابة واعظ(اقترب للناس حسابهم) فجزعت للخوف قلوبهم فجرت من الحذر العيون (فسالت أودية بقدرها) تزينت الدنيا لعلي فقال أنت طالق ثلاثا لا رجعة لي فيك وكانت تكفيه واحدة للسنة لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور الهوى جواز المراجعة : ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من المحلل كيف وهو أحد رواة حديث « لعن الله المحلل » *

ما فى هذه الدار موضع خلوة فاتخذه فى نفسك لا بد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر : لا تضرك الشواغل اذا خلوت منها وأنت فيها: نور الحق أضوأ من الشمس فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه : الطريق الى الله خال من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات وهو معمور بأهل اليقين والصبر وهم على الطريق كالأعلام (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) *

قاعدة

لشهادة ان لا اله الا الله عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات واحباطها لانها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة وانقادت بعد إبائها واستعصائها واقبلت بعد اعراضها وذلت بعد عزها وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها واستخذت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق اذل ما كانت له وارجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته وتجرد

منها التوحيد بانقطاع اسباب الشرك وتحقق بطلانه فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها واجتمع همها علي من ايقنت بالقدوم عليه والمصير اليه فوجه العبد وجهه بكليته اليه واقبل بقلبه وروحه وهمه عليه فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً واستوى سره وعلانيته فقال لا اله الا الله مخلصا من قلبه وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات الي ماسواه قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه وخمدت نيران شهوته وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فطهرته من ذنوبه وادخلته علي ربه لانه لقى ربه بشهادة صادقة خالصة وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها فلو حصلت له الشهادة علي هذا الوجه فى أيام الصحة لاستوحش من الدنيا واهلها وفر الي الله من الناس وانس به دون ماسواه لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة واسبابها ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات الى غير الله فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمى والله المستعان *

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء وحياته بيده وموته بيده وسعادته بيده وشقاوته بيده وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بأذنه ومشيئته: فلا يتحرك الا باذنه ولا يفعل الا بمشيئته ان وكله الي نفسه وكله الي عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة وان وكله الى غيره وكله الى من لايملك له ضرا ولانفعا ولاموتا ولا حياة ولانشورا وان تخلي عنه استولى عليه عدوه وجعله اسيرا له فهو لاغني له عنه طرفة عين بل هو مضطر اليه علي مدى الأنفاس فى كل ذرة من ذراته باطنا وظاهرا فاقته تامة اليه ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه يتبغض اليه بمعصيته مع شدة الضرورة اليه من كل وجه قد صار لذكره نسيا واتخذه وراءه ظهريا هذا واليه مرجعه وبين يديه موقفه *

فرغ خاطرك للهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك فان الرزق والأجل قرينان مضمونان فما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا واذا سد عليك بحكمته طريقا من طرقه فتح لك برحمته طريقا أنفع لك منه : فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحدة وهو السرة فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيهما رزقا اطيب والذ من الأول لبنا خالصا سائغا: فاذا تمت مدة الرضاع وانقطت الطريقان بالفطام فتح طرقا اربعة أكمل منها: طعامان وشرابان : فالطعامان من الحيوان والنبات . والشرابان من المياه والألبان وما يضاف اليهما من المنافع والملاذ فاذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة لكنه سبحانه فتح له إن كان سعيدا طرقا ثمانية وهى ابواب الجنة الثمانية يدخل من ايها شاء فهكذا الرب سبحانه لا يمنع عبده المؤمن شيئا من الدنيا الا ويؤتيه أفضل منه وأنفع له وليس ذلك لغير المؤمن فانه يمنعه الحظ الأدني الخسيس ولا يرضي له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس: والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له (١) بل هو مولع بحب العاجل وان كان دنيئا وبقلة الرغبة في الآجل وان كان عليا ولو انصف العبد ربه وانى له بذلك لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك فما منعه الا ليعطيه : ولا ابتلاه الا ليعافيه ولا امتحنه الا ليصافيه: ولا أماته الا ليحييه ولا أخرجه الي هذه الدار الا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة اليه فجعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر او أراد شكورا وأبى الظالمون الا كفورا * والله المستعان *

منَ عرف نفسه اشتغل باصلاحها عن عيوب الناس : من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه : أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالاخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا تري الخلق *

(١) يقال ذخره يذخره ذخرا وهو افتعال من الذخر

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب : باب شبهة اورثت شكا فى دين الله : وباب شهوة اورثت تقديم الهوى علي طاعته ومرضاته : وباب غضب أورث العدوان على خلقه *

أصول الخطايا كلها ثلاثة : الكبر وهو الذى أصار ابليس الي ماأضاره : والحرص وهو الذى أخرج آدم من الجنة : والحسدوهو الذى جرأ أحدا بني آدم علي أخيه : فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر فالكفر من الكبر : والمعاصى من الحرص : والبغى والظلم من الحسد *

جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم ظاهرة وباطنة آ لة لشيء اذا استعمل فيه فهوكماله . فالعين آ لة للنظر : والاذن آ لة للسماع . والأنف ا لة للشم : واللسان للنطق : والفرج للنكاح · واليد للبطش : والرجل للمشى: والقلب للتوحيد والمعرفة : والروح للمحبة . والعقل آ لة للتفكر والتدبر لعواقب الامور الدينية والدنيوية وايثار ما ينبغى ايثاره واهمال ما ينبغى اهماله *

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس : فى السنن من حديث أبي سعيد يرفعه « اذا أصبح ابن آدم فان الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فانما نحن بك فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا » قوله تكفر اللسان قيل معناه تخضع له (١) وفى الحديث ان الصحابة لما دخلوا علي النجاشي لم يكفروا له أى لم يسجدوا ولم يخضعوا ولذلك قال له عمرو بن العاص أيها الملك انهم لا يكفرون لك: وانما خضعت للسان لانه بريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء: وقولها انما نحن بك أي نجاتنا بك وهلاكنا بك: ولهذا قالت فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا *

---

(١) قال ابن الاثير فى النهاية بعد ما أورد الحديث أى تذل وتخضع والتكفير هو أن ينحني الانسان ويطاطىء رأسه قريبا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه .

فصل

جمع النبي ﷺ فى قوله « فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » بين مصالح الدنيا والآخرة ونعيمها ولذاتها انما ينال بتقوى الله وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا انما ينال بالاجمال في الطلب فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها : ومن أجمل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها فالله المستعان

قد نادت الدنيا على نفسها * لو كان فى ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته * وجامع فرقت ما يجمع

فائدة

جمع النبى ﷺ بين المأثم والمغرم (١) فان المأثم يوجب خسارة الآخرة والمغرم يوجب خسارة الدنيا *

فائدة

قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) علق سبحانه الهداية بالجهاد: فاكمل الناس هداية أعظمهم جهادا : وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوي وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الاربعة فى الله هداه الله سبل رضاه الموصلة الي جنته ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد * قال الجنيد والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الاخلاص ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر الا من جاهد هذه الأعداء باطنا فمن نصر عليها نصر على عدوه ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه *

(١) أي في التعوذ منهما

فصل

القى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك : والعداوة بين العقل وبين الهوى : والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء وأمد كل حزب بجنود وأعوان فلا تزال الحرب سجالا ودولا بين الفريقين الى أن يستولى أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهورا معه : فاذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم : واذا كانت النوبة للنفس والهوي والشيطان فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملك فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فانزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر وغالب لا يغلب وعزيز لا يذل فارسل اليه إن استنصرتني نصرتك وان استغثت بي اغثتك وان التجأت الي أخذت بثأرك وان هربت الى واويت الي سلطتك علي عدوك وجعلته تحت أسرك فان قال هذا الملك المأسور قد شد عدوى وثاقي وأحكم رباطي واستوثق مني بالقيود ومنعني من النهوض اليك والفرار اليك والمسير الي بابك فان أرسلت جندا من عندك يحل وثاقي ويفك قيودي ويخرجني من حبسه امكنني أن اوافي بابك والا لم يمكنني مفارقة محبسي ولا كسر قيودي فان قال ذلك احتجاجا على ذلك السلطان ودفعا لرسالته ورضا بما هو فيه عند عدوه خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولي : وان قال ذلك افتقارا اليه واظهاراً لعجزه وذله وانه أضعف واعجز أن يسير اليه بنفسه ويخرج من حبس عدوه ويتخلص منه بحوله وقوته وأن من تمام نعمته ذلك عليه كما أرسل اليه هذه الرسالة أن يمده من جنده

ومماليكه بمن يعينه علي الخلاص ويكسر باب محبسه ويفك قيوده فان فعل به ذلك فقد اتم انعامه عليه وان تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقا هوله وان حمده وحكمته اقتضي منعه وتخليته فى محبسه ولا سيما اذا علم أن الحبس حبسه وان هـذا العدو الذى حبسه مملوك من مماليكه وعبد من عبيده ناصيته بيده لا يتصرف الا باذنه ومشيئته فهو غير ملتفت اليه ولا خائف منه ولا معتقد أن له شيئا من الامر ولا بيده نفع ولا ضر بل هو ناظر الي مالـكه ومتولى أمره ومن ناصيته بيده قد افرده بالخوف والرجاء والتضرع اليه والالتجاء والرغبة والرهبة فهناك تأتيه جيوش النصر والظفر *

أعلى الهمم فى طلب العلم طلب علم الـكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حـدود المنزل * وأخس همم طلاب العلم قصر همته علي تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ولاهو واقع : أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس وليس له همة الى معرفة الصحيح من تلك الأقوال وقل أن ينتفع واحـد من هؤلاء بعلمه * وأعلي الهمم فى باب الارادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الدينى الأمرى وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله فهو انما يعبده لمراده منه لا لمراد الله منه فالاول يريد الله ويريد مراده : والثانى يريد من الله وهو فارغ عن إرادته *

علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون اليها الناس بأقوالهم ويدعونهم الى النار بافعالهم فـكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا اليه حقاً كانوا اول المستجيبين له فهم فى الصورة أدلاء وفى الحقيقة قطاع الطرق * اذا كان الله وحده حظك ومرادك فالفضل كله تابع لك يزدلف اليك أى أنواعه تبدأ به واذا كان حظك ما تنال منه فالفضل موقوف عنك لانه بيده تابع له فعل من أفعاله فاذا حصل لك حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع :واذا كان الفضل مقصودك لم يحصل الله بطريق الضمن والتبع فان

كنت قد عرفته وأنست به ثم سقطت الى طلب الفضل حرمك اياه عقوبة لك ففاتك الله وفاتك الفضل *

فصل

لما خرج رسول الله ﷺ من حصر العدو دخل في حصر النصر فعبثت أيدى سراياه بالنصر فى الأطراف فطار ذكره فى الآفاق فصار الخلق معه ثلاثة أقسام : مؤمن به ومسالم له وخائف منه: ألقى بذر الصبر فىمزرعة (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فاذا أغصان النبات تهتز بخزامي (والحرمات قصاص) فدخل مكة دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم الا الحدق والصحابة على مراتبهم والملائكة فوق رؤوسهم وجبريل يتردد بينه وبين ربه وقدأباح له حرمه الذي لم يحله لاحدسواه فلما قايس بين هذا اليوم وبين يوم (واذ يمكر الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) فاخرجوه ثاني اثنين *

دخل وذقنه تمس قربوس سرجه خضوعاً وذلا لمن ألبسه ثوب هـذا العز الذى رفعت اليه فيه الخليقة رؤوسها ومدت اليه الملوك أعناقها فدخل مكة مالكا مؤيدا منصورا وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجر فى الرمضاء على جمر الفتنة فنشر بزاً طوى عن القوم من يوم قوله «أحد أحد» ورفع صوته بالاذان فأجابته القبائل من كل ناحية فاقبلوا يؤمون الصوت فدخلوا فى دين الله أفواجا وكانوا قبل ذلك يأتون آحادا فلما جلس الرسول على منبر العز وما نزل عنه قط مدت الملوك أعناقها بالخضوع اليه فمنهم من سلم اليه مفاتيح البلاد ومنهم من سأله الموادعة والصلح ومنهم من أقر بالجزية والصغار ومنهم من أخذ فى الجمع والتأهب للحرب ولم يدر أنه لم يزد على جمع الغنائم وسوق الاسارى اليه فلما تكامل نصره وبلغ الرسالة وأدى الامانة وجاءه منشور (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك

الله نصراً عزيزاً) وبعده توقيع (اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) جاءه رسول ربه يخيره بين المقام فى الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء ربه شوقا اليه فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك : اذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض اتباعه (١) فرحا واستبشارا بقدوم روحه فكيف بقدوم روح سيد الخلائق : فيا منتسبا الى غير هذا الجناب ويا واقفا بغير هذا الباب ستعلم يوم الحشر أى سريرة تكون عليها يوم تبلي السرائر *

فصل

يامغرورا بالاماني لعن أبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها واخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها : وحجب القاتل عنها بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم : وامر بقتل الزاني اشنع القتلات بايلاج قدر الأنملة فيما لا يحل وأمر بايساع الظهر سياطا بكلمة قذف او بقطرة من سكر : وابان عضوا من اعضائك بثلاثة دراهم فلا تأمنه ان يحبسك فى النار بمعصية واحدة من معاصيه (ولا يخاف عقباها) دخلت امرأة النار فى هرة: وان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مابين المشرق والمغرب: وان الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فاذا كان عند الموت جار فى الوصية فيختم له بسوء عمله فيدخل النار : العمر بآخره والعمل بخاتمته : من أحدث قبل السلام بطل مامضي من صلاته ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً ومن أساء فى آخر عمره لقى ربه بذلك الوجه : لو قدمت لقمة وجدتها ولكن يؤذيك الشره : كم جاء الثواب يسعى اليك فوقف بالباب فرده بواب سوف ولعل وعسى : كيف الفلاح

(١) قد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ الانصاري وهو كبير الاوس : وقد ورد فى صحيح البخاري وغيره : واهتزاز العرش له رضى الله عنه منقبة عظيمة له رضي الله عنه :

بين ايمان ناقص وأمل زائد ومرض لا طبيب له ولا عائدوهوى مستيقظوعقل راقد ساهيا فى غمرته عمها فى سكرته سابحا فى لجة جهله مستوحشا من ربه مستأنسا بخلقه ذكر الناس فاكهته وقوته وذكر الله حبسه وموته لله منه جزء يسير من ظاهره وقلبه ويقينه لغيره

لا كان من لسواك فيه بقية * يجد السبيل بها اليه العذل

فصل

كان أول المخلوقات القلم ليكتب المقادير قبل كونها وجعل آدم آخر المخلوقات وفى ذلك حكم* أحدها تمهيد الدار قبل الساكن* الثانية أنه الغاية التي خلق لاجلها ماسواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر: الثالثة ان احذق الصناع يختم عمله باحسنه وغايته كما يبدؤه باساسه ومبادئه: الرابعة ان النفوس متطلعة الى النهايات والأواخر دائما ولهذا قال موسى للسحرة اولا (القوا انتم ملقون) فلما راى الناس فعلهم تطلعوا الى ما يأتي بعده * الخامسة ان الله سبحانه أخر أفضل الكتب والانبياء والأمم الى آخر الزمان وجعل الآخرة خيراً من الأولى والنهايات أكمل من البدايات: فكم بين قول الملك للرسول اقرأ فيقول ما أنا بقاريء وبين قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم)* السادسة انه سبحانه جمع ما فرقه فى العالم في آدم فهو العالم الصغير وفيه ما فى العالم الكبير* السابعة انه خلاصة الوجود وثمرته فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات * الثامنة ان من كرامته علي خالقه أنه هيأ له مصالحه وحوائجه وآلات معيشته وأسباب حياته فما رفع رأسه الا وذلك كله حاضر عتيد* التاسعة انه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات فقدمها عليه فى الخلق ولهذا قالت الملائكة ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقاً اكرم عليه منا فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة فلما وقع فى الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل

قد نسخ ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة فلما تاب الى ربه وأتي بتلك العبودية علمت الملائكة ان لله فى خلقه سراً لا يعلمه سواه * العاشرة انه سبحانه لما افتتح خلق هذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الانسان فان القلم آلة العلم والانسان هو العالم : ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خص به دونهم: ﴿وتأمل﴾ كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه الى الأرض ونبه الملائكة على فضله وشرفه ونوّه باسمه قبل ايجاده بقوله (اني جاعل فى الأرض خليفة) وتأمل كيف وسمه بالخلافة وتلك ولاية له قبل وجوده وأقام عذره قبل الهبوط بقوله (فى الأرض) والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته فلما صوّره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة لان دأب المحب الوقوف على باب الحبيب رمى به فى طريق ذلّ (لم يكن شيئا) لئلا يعجب يوم (اسجدوا) كان ابليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول لأمر قد خلقت ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول لئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت علي لأعصينك ولم يعلم ان هلاكه على يده رأى طيناً مجموعاً فاحتقره فلما صور الطين صورة دبّ فيه داء الحسد فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد فلما بسط له بساط العز عرضت عليه المخلوقات فاستحضر مدعى (ونحن نسبح) الي حاكم (أنبؤني) وقد أخفى الوكيل عنه بينة (وعلم) فنكسوا رؤوس الدعاوى على صدور الاقرار فقام منادي التفضيل فى أندية الملائكة ينادى (اسجدوا) فتطهروا من حدث دعوي (ونحن) بماء العذر فى آنية (لاعلم لنا) فسجدوا على طهارة التسليم وقام ابليس ناحية لم يسجد لانه خبث وقد تلون بنجاسة الاعتراض وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير لانها عينية فلما تم كمال آدم قيل لا بد من خال جمال على وجه (اسجدوا) فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية فى الذل يا آدم لو عفى لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون كيف فضل ذو شره لم يصبر علي شجرة لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس ولا نزلت رسائل هل من سائل ولافاحت

روائح وخلوف فم الصائم فتبين حينئذ ان ذلك التناول لم يكن عن شره * يا آدم ضحكك فى الجنة لك وبكاؤك فى دار التكليف لنا * ماضر من كسره عزى اذا جبره فضلي انما تليق خلعة العز ببدن الانكسار : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي : ما زالت تلك الأكلة تعادّه حتي استولى داؤه على أولاده فأرسل اليهم اللطيف الخبير الدواء علي أيدي أطباء الوجود (فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى) فحماهم الطبيب بالمناهى وحفظ القوة بالأوامر واستفرغ اخلاطهم الرديئة بالتوبة فجاءت العافية من كل ناحية *

فيامن ضيع القوة ولم يحفظها وخلط فى مرضه وما احتمى ولا صبر على مرارة الاستفراغ لا تنكر قرب الهلاك فالداء مترام الى الفساد لو ساعد القدر فأعنت الطبيب علي نفسك بالحمية من شهوة خسيسة ظفرت بانواع اللذات وأصناف المشتهيات ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة فظننت ان الحزم بيع الوعد بالنقد يالها بصيرة عمياء جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد سافرت فى طلب الدنيا وهى عنها زائلة وقعدت عن السفر الى الآخرة وهى اليها راحلة اذا رأيت الرجل يشترى الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير فاعلم بانه سفيه *

فصل

لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب * ابن آدم لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بي شيئا لقيتك بقرابها مغفرة * لما علم السيد ان ذنب عبده لم يكن قصداً لمخالفته ولا قدحاً فى حكمته علمه كيف يعتذر اليه (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) * العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ولا الجرأة على محارمه ولكن غلبات الطبع وتزيين النفس والشيطان وقهر الهوى والثقة بالعفو ورجاء المغفرة هذا من جانب العبد : وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم واظهار عز الربوبية وذل العبودية وكمال الاحتياج وظهور آثار الأسماء الحسني

كالعفوّ والغفور والتواب والحليم لمن جاء تائباً نادماً والمنتقم والعدل وذي البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة فهو سبحانه يريد أن يرى عبده تفرده بالكمال ونقص العبد وحاجته اليه ويشهده كمال قدرته وعزته وكمال مغفرته وعفوه ورحمته وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه وان رحمته به احسان اليه لا معاوضة وانه ان لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة فلله كم من تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة: التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل وربّ علة كانت سبب الصحة

لعل عتبك محمود عواقبه * وربما صحت الأجساد بالعلل

لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب * ذنب يذل به أحب اليه من طاعة يدلّ بها عليه * شمعة النصر انما تنزل فى شمعدان الانكسار * لا يكرم العبد نفسه بمثل اهانتها ولا يعزها بمثل ذلها ولا يريحها بمثل تعبها كما قيل

سأتعب نفسي أو أصادف راحة * فان هوان النفس فى كرم النفس

ولا يشبعها بمثل جوعها ولا يؤمنها بمثل خوفها ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ولا يحييها بمثل اماتتها كما قيل

موت النفوس حياتها * من شاء أن يحيا يموت

شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق (١) من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة يا معرقلا فى شرك الهوى جمزة (٢) عزم وقد خرقت الشبكة لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم * لله ملك السموات والارض واستقرض منك حبة فبخلت بها وخلق سبعة أبحر وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها * اطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور والقلب كعبة والمعبود لا يرضى بمزاحمة

(١) هو الغصة ومنه حديث « الحرق والشرق شهادة » هو الذى يشرق بالماء فيموت:

(٢) الجمز العدو والاسراع : ويقال هو نوع من السير أشد من العنق

الأصنام : لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن غير أن زوبعة الهوى اذا ثارت سفت (١) فى عين البصيرة فخفيت الجادة : سبحان الله تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهر وتعرف رب العزة الي المحبين باسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف

لا كان من لسواك منه قلبه * ولك اللسان مع الوداد الكاذب

المعرفة بساط لا يطأ عليه الا مقرب والمحبة نشيد لا يطرب عليه الا محب مغرم * الحب غدير فى صحراء ليست عليه جادة فلهذا قل وارده * المحب يهرب الى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت الى الماء والطفل الى أمه *

وأخرج من بين البيوت لعلنى * أحدث عنك القلب بالسر خاليا

ليس للعابد مستراح الا تحت شجرة طوبي ولا للمحب قرار الا يوم المزيد * اشتغل به فى الحياة يكفك ما بعد الموت * يا منفقا بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه ليس فى أعدائك أضر عليك منك

ما تبلغ الأعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدي الملتقى فاستبشر عند القدوم (وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) * تالله ما عدا عليك العدو الا بعد ان تولى عنك الولى فلا تظن ان الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض * احذر نفسك فما أصابك بلاء قط الا منها ولا تهادنها : فوالله ما أكرمها من لم يهنها : ولا أعزها من لم يذلها : ولا جبرها من لم يكسرها : ولا أراحها من لم يتعبها : ولا أمنها من لم يخوفها : ولا فرحها من لم يحزنها * سبحان الله ظاهرك متجمل بلباس التقوى وباطنك باطية (٢)

---

(١) أي ذرت (٢) الباطية اناء القذر من فخار ونحوه

لخمر الهوى فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته فتباعد منك الصادقون وانحاز اليك الفاسقون * يدخل عليك لص الهوى وأنت فى زاوية التعبد فلا يرى منك طرداً له فلا يزال بك حتي يخرجك من المسجد * أصدق فى الطلب وقد جاءتك المعونة * قال رجل لمعروف علمنى المحبة فقال المحبة لا تجىء بالتعليم

هو الشوق مدلولا على مقتل الفنا * اذا لم يعد صبا باقيا حبيبه

ليس العجب من قوله يحبونه انما العجب من قوله يحبهم * ليس العجب من فقير مسكين يحب محسناً اليه انما العجب من محسن يحب فقيراً مسكيناً *

فصل

القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته فتارة يتجلى فى جلباب الهيبة والعظمة والجلال فتخضع الأعناق :وتنكسر النفوس :وتخشع الاصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح فى الماء وتارة يتجلي فى صفات الجمال والكمال وهو كمال الاسماء وجمال الصفات وجمال الافعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغاً الا من محبته فاذا أراد منه الغير ان يعلق تلك المحبة به ابى قلبه واحشاؤه ذلك كل الاباء كما قيل

يراد من القلب نسيانكم * وتأبي الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً: واذا تجلي بصفات الرحمة والبر واللطف والاحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار الى ربه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره وكلما قوى الرجاء جد فى العمل كما ان الباذر كلما قوي طمعه فى المغل غلق ارضه بالبذر واذا ضعف رجاؤه قصر فى البذر* واذا تجلي بصفات العدل والانتقام

والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت او ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص علي المحرمات وانقبضت أعنة رعوناتها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر : واذا تجلي بصفات الامر والنهي والعهد والوصية وارسال الرسل وانزال الكتب وشرع الشرائع انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصي بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهي * واذا تجلي بصفة السمع والبصر والعلم انبعث من العبد قوة الحياء فيستحيي ربه ان يراه على ما يكره اويسمع منه ما يكره او يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى * واذا تجلي بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق ارزاقهم اليهم : ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض اليه والرضا به وما في كل ما يجريه علي عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه : والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له* واذا تجلي بصفات العز والكبرياء اعطت نفسه المطمئنة ما وصلت اليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشه وقوته وحدته *

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف الي العبد بصفات آلهيته تارة وبصفات ربوبيته تارة فيوجب له شهود صفات الآلهية المحبة الخاصة والشوق الى لقائه والانس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد اليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق اليه ويصير هو وحده همه دون ما سواه * ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار اليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في الهيته والهيته في ربوبيته وحمده في ملكه وعزه في عفوه

وحكمته في قضائه وقدره: ونعمته فى بلائه وعطاءه فى منعه وبره ولطفه وأحسانه ورحمته فى قيوميته: وعدله فى انتقامه وجوده وكرمه فى مغفرته وستره وتجاوزه: ويشهد حكمته ونعمته فى أمره ونهيه وعزه فى رضاه وغضبه وحلمه فى إمهاله وكرمه فى إقباله وغناه في اعراضه *

وانت اذا تدبرت القرآن واجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وافكار المتكلفين أشهدك ملكا قيوما فوق سمواته علي عرشه يدبر أمر عباده يأمر وينهى ويرسل الرسل وينزل الكتب ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطى ويمنع ويعز ويذل ويخفض ويرفع يرى من فوق سبع ويسمع ويعلم السر والعلانية فعال لما يريد موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب لا تتحرك ذرة فما فوقها الا باذنه ولا تسقط ورقة الا بعلمه ولا يشفع أحد عنده الا بأذنه ليس لعباده من دونه ولى ولا شفيع *

فصل

لما بايع الرسول ﷺ أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة الي المدينة فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه فاعملت آراءها فى استخراج الحيل فمنهم من رأي الحبس: ومنهم من رأى النفى ثم اجتمع رأيهم علي القتل فجاء البريد بالخبر من السماء وأمره أن يفارق المضجع فبات علي مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه: وتارة عن يمينه وتارة عن شماله الي أن انتهيا الى الغار فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له ان كان ثم موذ وأنبت الله شجرة لم تكن قبل فأظلت المطلوب واضلت الطالب وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار فحاكت ثوب نسجها علي منوال الستر فاحكمت الشقة حتى عمى على القائف المطلب وأرسل حمامتين فاتخذتا هناك عشا جعل

على أبصار الطالبين غشاوة وهذا أبلغ فى الاعجاز من مقاومة القوم بالجنود فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول والصديق قال الصديق وقد اشتد به القلق يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الي ما تحت قدميه لابصرنا تحت قدميه فقال رسول الله ﷺ ياأبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما لما رأى الرسول حزنه قد آشتد لكن لا علي نفسه قوي قلبه ببشارة (لا تحزن ان الله معنا) فظهر سر هذا الاقتران فى المعية لفظا كما ظهر حكما ومعنى اذ يقال رسول الله وصاحب رسول الله فلما مات ﷺ قيل خليفة رسول الله ثم انقطعت اضافة الخلافة بموته فقيل أمير المؤمنين فاقاما في الغار ثلاثا ثم خرجا منه ولسان القدر يقول لتدخلنها دخولا لم يدخله أحد قبلك ولا ينبغي لاحد من بعدك فلما استقلا علي البيداء لحقهما سراقة بن مالك فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول سهما من سهام الدعاء فساخت قوائم فرسه فى الارض الى بطنها فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال علي من قد رد مفاتيح الكنوز ويقدم الزاد الي شبعان «أبيت عند ربي يطعمنى ويسقينى» كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق دون الجميع فهو الثانى فى الاسلام وفى بذل النفس وفى الزهد وفى الصحبة وفى الخلافة وفى العمر: وفى سبب الموت لان الرسول ﷺ مات عن أثر السم وأبو بكر سم فمات: أسلم على يديه من العشرة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص: وكان عنده يوم أسلم أربعون الف درهم فانفقها أحوج ما كان الاسلام اليها فلهذا اجلبت نفقته عليه «مانفعنى مال مانفعني مال أبي بكر» فهو خير من مؤمن آل فرعون لان ذلك كان يكتم ايمانه والصديق أعلن به: وخير من مؤمن آل ياسين لان ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الايثار ويصيح (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) فألقى له حب المال علي روض الرضا واستلقى على فراش الفقر فنقل الطائر الحب الى حوصلة المضاعفة ثم علا على افنان شجرة الصدق يغرد

بفنون المدح ثم قال فى محاريب الاسلام يتلو (وسيجنبها الأتقى الذى يؤتي ماله يتزكى) نطقت بفضله الآيات والاخبار * واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار : فيا مبغضيه فى قلوبكم من ذكره نار: كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار : أتري لم يسمع الروافض الكفار (ثانى اثنين اذ هما فى الغار) دعي الي الاسلام فما تلعثم ولا أبي : وسار علي المحجة فما زل ولا كبا : وصبر فى مدته من مدى العدى علي وقع الشبا : وأكثر فى الانفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا : تالله لقد زاد علي السبك فى كل دينار دينار (ثانى اثنين اذ هما فى الغار) من كان قرين النبي فى شبابه : من ذا الذي سبق إلي الايمان من أصحابه: من الذى أفتي بحضرته سريعا فى جوابه: من أول من صلي معه :من آخر من صلى به من الذي ضاجعه بعد الموت فى ترابه: فاعرفوا حق الجار : نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ: وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الالحاظ : فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ : حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره ولكن أين الفرار : كم وقى الرسول بالمال والنفس : وكان أخص به فى حياته وهو ضجيعه فى الرمس : فضائله جلية وهى خلية عن اللبس : يا عجبا من يغطى عين ضوء الشمس في نصف النهار لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث : فاستوحش الصديق من خوف الحوادث : فقال الرسول ما ظنك باثنين والله الثالث : فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث: فزال القلق وطاب عيش الماكث : فقام مؤذن النصر ينادى على رؤوس منائر الامصار (ثاني اثنين اذ هما فى الغار) حبه والله رأس الحنيفية وبغضه يدل على خبث الطوية : فهو خير الصحابة والقرابة والحجة على ذلك قوية: لولا صحة امامته ماقيل ابن الحنفية مهلا مهلا فان دم الروافض قد فار: والله ما احببناه لهوانا : ولا نعتقد فى غيره هوانا : ولكن أخذنا بقول علىّ وكفانا رضيك رسول الله لديننا: أفلا نرضاك لدنيانا :تالله لقد أخذت من الروافض بالثار:

تالله لقد وجب حق الصديق علينافنحن نقضي بمدائحه ونقر بما نقرّ به من السنى عيناً فمن كان رافضياً فلا يعد الينا و ليقل لي أعذار *

تنبيه

اجتنب من يعادى أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه : احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق:صاد عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله * ومفتون بدنياه ورئاسته * من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته فى استعمال تلك القوة فيه : فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه : ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية فى متعلقها: ومن خلقت فيه قوة الاكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيهما : ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها الى العلم : ومن خلقت فيه قوة الحب لله والانابة اليه والعكوف بالقلب عليه والشوق اليه والانس به فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة فى ذلك . وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية واحمد عاقبتها ان تكون لا له ولا عليه *

تنبيه

يا أيها الأعزل احذر فراسة المتقى فانه يرى عورة عملك من وراء ستر « اتقوا فراسة المؤمن » (١) سبحان الله فى النفس كبر ابليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود : وجرأة نمرود : واستطالة فرعون . وبغى قارون: وقحة هامان

---

(١) الفراسة بكسر الفاء قال فى النهاية يقال بمعنيين أحدهما ما دل ظاهر هذا الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالي فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات واصابة الظن والحدس * والثانى نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والاخلاق فتعرف به أحوال الناس : وللناس فيه تصانيف قديمة وحديثة :

وهوي بلعام: وحيل اصحاب السبت: وتمرد الوليد : وجهل أبي جهل : وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب : وشره الكلب : ورعونة الطاووس : ودناءة الجعل :وعقوق الضب : وحقد الجمل : ووثوب الفهد: وصولة الاسد: وفسق الفأرة وخبث الحية:وعبث القرد : وجمع النملة : ومكر الثعلب: وخفة الفراش:ونوم الضبع غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند ولا تصلح سلعته لعقد (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم)فما لشترى الاسلعة هذبها الايمان فخرجت من طبعها الي بلد سكانه التائبون العابدون : سلم المبيع قبل أن يتلف فى يدك فلا يقبله المشتري قد علم المشترى بعيب السلعة قبل أن يشتريها فسلمها ولك الامان من الرد : قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها والثمن المبذول فيها والمنادى عليها فاذا كان المشترى عظيما والثمن خطيراً والمنادى جليلا كانت السلعة نفيسة

يا بائعاً نفسه بيع الهوان لو اسـ ـترجعت ذا البيع قبل الفوت لم تخب
وبائعاً طيب عيش ما له خطر * بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشاً ولدى * يوم التغابن تلقى غاية الحرب
ووارداً صفو عيش كله كدر * أمامك الورد حقاً ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصباً * لكل داهية تدني من العطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض * فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنياً نفسه فى إثر أقبحهم * وصفا للطخ جمال فيه مستلب
وواهباً نفسه من مثل ذا سفهاً * لو كنت تعرف قدر النفس لم تهب
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب * وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها * والفيء في الأفق الشرقي لم يغب

وفاز بالوصل من قدجدوانقشعت * عن أفقه ظلمات الليل والسحب

كم ذاالتخلف والدنياقد ارتحلت * ورسل ربك قد وافتك في الطلب

مافى الديار وقدسارت ركائب من * تهواه للصب من شكر ولا أرب

فافرش الخد ذياك التراب وقل * ما قاله صاحب الأشواق والحقب

ما ربع مية محفوفاً يطيف به * غيلان أشهى له من ربعك الخرب

منازلا كان يهواها ويألفها * ايام كان منال الوصل عن كثب

ولاالخدود ولو أدمين من ضرج * اشهى الى ناظرى من ربعك الخرب

وكلما جليت تلك الربوع له * يهوى اليها هوي الماء فى الصبب

أحيي له الشوق تذكارالعهود بها * فلو دعى القلب للسلوان لم يجب

هذا وكم منزل فى الأرض يألفه * وماله فى سواها الدهر من رغب

مافى الخيام اخو وجد يريحك إن * بثثته بعض شان الحب فاغترب

واسر فى غمرات الليل مهتديا * بنفحة الطيب لا بالعود والحطب

وعاد كل أخي جبن ومعجزة * وحارب النفس لا تلقيك فى الحرب

وخذ لنفسك نوراً تستضيء به * يوم اقتسام الورى الانوار بالرتب

ان كان يوجب صبري رحمتي فرضا * بسوء حالى وحل للضنا بدني

منحتك الروح لا أبغى لها ثمنا * الا رضاك ووافقرى الى الثمن

أحن بأطراف النهار صبابة * وبالليل يدعوني الهوى فأجيب

واذا لم يكن من العشق بد * فمن العجز عشق غير الجميل

فلو أن ما أسعى لعيش معجل * كفانى منه بعض ما أنا فيه
ولكنما أسعى لملك مخلد * فوا أسفًا إن لم أكن بملاقيه

يا من هو من أرباب الخبرة هل عرفت قيمة نفسك انما خلقت الأكوان كلها لك * يا من غذى بلبان البر وقلب بأيدى الالطاف كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة وصورة وأنت المعنى وصدف وأنت الدر ومخيض وأنت الزبد* منشور اختيارنا لك واضح الخط ولكن استخراجك ضعيف * متي رمت طلبي فاطلبنى عندك اطلبني منك تجدني قريباً ولا تطلبني من غيرك فانا أقرب اليك منه * لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصي انما أبعدنا ابليس اذ لم يسجد لك وأنت فى صلب أبيك فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها علي جسدك

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني * ألست أري الأعضاء منك كواسيا

لو تغذي القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات

ولو كنت عذرى الصبابة لم تكن * بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لايذكرك بالحبيب : واعجبا لمن يدعى المحبة ويحتاج الي من يذكره بمحبوبه فلا يذكره. الا بمذكر أقل ما فى المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب

ذكرتك لا أني نسيتك ساعة * وأيسر ما فى الذكر ذكر لساني

اذا سافر المحب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه فكان الحب فى مقدمة العسكر والرجاء يحدو بالمطى والشوق يسوقها والخوف يجمعها علي الطريق فاذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء

فداو سقما بجسم أنت متلفه * وابرد غراما بقلب أنت مضرمه
ولا تكلني على بعد الديار الي * صبرى الضعيف فصبري أنت تعلمه

تلق قلبى فقد أرسلته عجلا * الى لقائك والأشواق تقدمه

فاذا دخل علي الحبيب افيضت عليه الخلع من كل ناحية ليمتحن أيسكن اليها فتكون حظه أم يكون التفاته الى من ألبسه اياها * ملأوا مراكب القلوب متاعا لا تنفق الا على الملك فلما هبت رياح السحر اقلعت تلك المراكب فما طلع الفجر الا وهى بالمينا * قطعوا بادية الهوي باقدام الجد فما كان الا القليل حتي قدموا من السفر فاعقبهم الراحة في طريق التلقى فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد * فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة فاقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى * سرادق المحبة لا يضرب الا فى قاع نزه فارغ

نزه فؤادك من سوانا والقنا * فجنابنا حل لكل منزه
الصبر طلسم لكنز وصالنا * من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

اعرف قدر ما ضاع منك وابك بكاء من يدرى مقدار الفائت * لو تخيلت قرب الأحباب لاقمت المأتم على بعدك * لو استنشقت ريح الأسحار لافاق منك قلبك المخمور * من استطال الطريق ضعف مشيه

وما أنت بالمشتاق ان قلت بيننا * طوال الليالى أو بعيد المفاوز

أما علمت أن الصادق اذا هم القى بين عينيه عزمه * اذا نزل آب فى القلب حل آذار فى العين * هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك * من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا * اذا لاح للباشق الصيد نسي مألوف الكف * يا أقدام الصبر احملي بقى القليل * تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة * قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر * أعلي الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب * قدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر بالرضا عند القدوم وقدموا لانفسكم * الجنة ترضي منك باداء الفرائض والنار تندفع

عنك بترك المعاصي والمحبة لا تقنع منك الا بذل الروح * لله ما أحلي زمان تسعى فيه أقدام الطاعة علي ارض الاشتياق * لما سلم القوم النفوس الى رائض الشرع علمها الوفاق فى خلاف الطبع فاستقامت مع الطاعة كيف دارت معها*

واني اذا اصطكت رقاب مطيهم * وثور حاد بالرفاق عجول
اخالف بين الراحتين على الحشا * وأنظر أني ملثم فأميل

فصل

علمت كلبك فهو يترك شهوته فى تناول ما صاده احتراما لنعمتك وخوفا من سطوتك وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل * حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه فما ظن الجاهل الذى أعماله لهوي نفسه * جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوي الشيطان وأنت للغالب عليك من الثلاثة أن غلبت شهوتك وهواك زدت علي مرتبة ملك وان غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب * لما صاد الكلب لربه أبيح صيده ولما أمسك علي نفسه حرم ما صاده * مصدر ما فى العبد من الخير والشر والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطى المانع فهو سبحانه يصرف عباده بين مقتضى هذين الاسمين فحظ العبد الصادق من عبوديته بهما الشكر عند العطاء والافتقار عند المنع فهو سبحانه يعطيه ليشكره ويمنعه ليفتقر اليه فلا يزال شكورا فقيرا *

قوله تعالي (وكان الكافر على ربه ظهيراً) هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه وان المؤمن دائما مع الله علي نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه: وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه فهو مع الله علي عدوه الداخل فيه والخارج عنه يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه كما يكون خواص الملك معه علي حرب اعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به

والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه علي ربه * وعبارات السلف علي هذا تدور * ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال عونا للشيطان علي ربه بالعداوة والشرك * وقال ليث عن مجاهد قال يظاهر الشيطان علي معصية الله يعينه عليها: وقال زيد بن أسلم ظهيرا أي مواليا : والمعني أنه يوالي عدوه علي معصيته والشرك به فيكون مع عدوه معينا له علي مساخط ربه *

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه ولهذا صدر الآية بقوله (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم) وهذه العبادة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه سبحانه فانه معه علي نفسه وشيطانه وهواه : وهذا المعني من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله وبالله التوفيق *

قوله تعالى (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قال مقاتل اذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما لم يسمعوه وعميانا لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به : وقال ابن عباس لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين: وقال الكلبي يخرون عليها سمعا وبصرا: وقال الفراء واذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولي كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور (١) : وسمعت العرب تقول قعد يشتمنى كقولك قام يشتمنى واقبل يشتمنى والمعني على ما ذكر لم يصيروا عندها صما وعميانا * وقال الزجاج المعني اذا تليت عليهم خروا سجدا وبكيا سامعين مبصرين كما أمروا به * وقال ابن قتيبة أي لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها (قلت) ههنا أمران ذكر الخرور وتسليط النفي عليه وهل هو خرور القلب أو خرور البدن

---

(١) الخرور مصدر خر أى سقط

للسجود وهل لمعنى لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً أو بالبدن سجوداً أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود *

أصول المعاصى كلها كبارها وصغارها ثلاثة : تعلق القلب بغير الله : وطاعة القوة الغضبية : والقوة الشهوانية وهى الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله شرك وان يدعى معه اله آخر : وغاية طاعة القوة الغضبية القتل: وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة فى قوله (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون) وهذه الثلاثة يدعو بعضها الى بعض فالشرك يدعو الى الظلم والفواحش كما أن الاخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه قال تعالي (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فالسوء العشق والفحشاء الزنا : وكذلك الظلم يدعو الى الشرك والفاحشة فان الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد : فالعدل قرين التوحيد والظلم قرين الشرك ولهذا يجمع سبحانه بينهما: أما الاول ففى قوله (شهد الله أنه لا آله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وأما الثاني فكقوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) والفاحشة تدعو الي الشرك والظلم ولا سيما اذا قويت ارادتها ولم تحصل الا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان: وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك فى قوله (الزاني لا ينكح الا زانية اومشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين) فهذه الثلاثة يجر بعضها الى بعض ويأمر بعضها ببعض ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان اكثر فاحشة وأعظم تعلقا بالصور وعشقا لها: ونظير هذا قوله تعالى (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون) فاخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه وهذا هو التوحيد : ثم قال (والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش) فهذا اجتناب داعى القوة الشهوانية ثم قال

(واذا ما غضبوا هم يغفرون) فهذا مخالفة القوة الغضبية فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التي هي جماع الخير كله*

فائدة

هجر القرآن أنواع : أحدها هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه * والثاني هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وان قرأه وآمن به * والثالث هجر تحكيمه والتحاكم اليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم : والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه * والخامس هجر الاستشفاء والتداوي به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوى به وكل هذا داخل فى قوله (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) وان كان بعض الهجر أهون من بعض : وكذلك الحرج الذي فى الصدور منه فانه تارة يكون حرجا من إنزاله وكونه حقا من عند الله وتارة يكون من جهة التكلم به أو كونه مخلوقا من بعض مخلوقاته الهم غيره أن تكلم به وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفى العباد بل هم محتاجون معه الى المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السياسات : وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب أو أريد به تأويلها واخراجها عن حقائقها الي تأويلات مستكرهة مشتركة : وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وان كانت مرادة فهى ثابتة فى نفس الامر أو أوهم انها مرادة لضرب من المصلحة : فكل هؤلاء فى صدورهم حرج من القرآن وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه فى صدورهم ولا تجد مبتدعا فى دينه قط الا وفى قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته كما أنك لا تجد ظالما فاجرا الا وفى صدره حرج من الآيات التى تحول بينه وبين ارادته فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء*

فائدة

كمال النفس المطلوب ما تضمن أمرين: أحدهما أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها : الثاني أن يكون صفة كمال فى نفسه فاذا لم يكن كذلك لم يكن كمالا فلا يليق بمن يسعى فى كمال نفسه المنافسة عليه ولا الاسف على فوته وذلك ليس الا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها والهها الحق الذى لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة الا بمعرفته وارادة وجهه وسلوك الطريق الموصلة اليه والى رضاه وكرامته وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة وما عدا ذلك من العلوم والارادات والأعمال فهى بين مالا ينفعها ولا يكملها وما يعود بضررها ونقصها وألمها ولا سيما اذا صار هيئة راسخة لها فانها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها ٭ وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال فتلك فى الحقيقة عوار اعيرتها مدة ثم يرجع فيها المعير فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها ولا سيما اذا كانت هى غاية كمالها فاذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتة فاكثر هذا الخلق انما يسعون فى حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك ومتى عدم ذلك وخلا منه لم يبق فيه الا القوى البدنية النفسانية التي بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة بل خساسة ومنقصة اذ كان انما يناسب بتلك القوى البهائم ويتصل بجنسها ويدخل فى جملتها ويصير كأحدها وربما زادت فى تناولها عليه واختصت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها فكمال تشاركك فيه البهائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة حقيق أن تهجره الي الكمال الحقيقى الذي لا كمال سواه وبالله التوفيق ٭

فائدة جليلة

اذا أصبح العبد وأمسي وليس همه الا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها وحمل عنه كل ما أهمه: وفرغ قلبه لمحبته: ولسانه لذكره: وجوارحه لطاعته: وان أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها ووكله الى نفسه فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق ولسانه عن ذكره بذكرهم وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه فى نفع غيره ،فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته : قال تعالي (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) قال سفيان بن عيينة لا تأتون بمثل مشهور للعرب الا جئتكم به من القرآن فقال له قائل فأين فى القرآن: اعط أخاك تمرة فان لم يقبل فاعطه جمرة : فقال فى قوله (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا) الآية

فائدة

العلم نقل صورة المعلوم من الخارج واثباتها فى النفس والعمل نقل صورة علمية من النفس واثباتها فى الخارج فان كان الثابت فى النفس مطابقا للحقيقة فى نفسها فهو علم صحيح وكثيراً ما يثبت ويتراأي فى النفس صور ليس لها وجود حقيقى فيظنها الذى قد أثبتها فى نفسه علما وانما هى مقدرة لاحقيقة لها : وأكثر علوم الناس من هذا الباب : وما كان منها مطابقا للحقيقة فى الخارج فهو نوعان نوع تكمل النفس بادراكه والعلم به وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه : ونوع لا يحصل للنفس به كمال وهو كل علم لا يضر الجهل به فانه لاينفع العلم به وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لاينفع وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة التي لايضر الجهل بها شيئاً كالعلم بالفلك

ودقائقه ودرجاته وعدد الكواكب ومقاديرها والعلم بعدد الجبال والوانها ومساحاتها ونحوذلك فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة اليه وليس ذلك الا العلم بالله وتوابع ذلك : واما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الديني الذي يحبه الله ويرضاه وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الارادة تارة ففساده من جهة العلم ان يعتقد ان هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك او يعتقد انه يقر به الي الله وان لم يكن مشروعا فيظن انه يتقرب الى الله بهذا العمل وان لم يعلم انه مشروع * وأما فساده من جهة القصد فان لا يقصد به وجه الله والدار الآخرة بل يقصد به الدنيا والخلق وهاتان الآفتان في العلم والعمل لاسبيل الى السلامة منهما الا بمعرفة ماجاء به الرسول فى باب العلم والمعرفة وارادة وجه الله والدار الآخرة فى باب القصد والارادة فمتى خلامن هذه المعرفة وهذه الارادة فسد علمه وعمله : والايمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الارادة وهما يورثان الايمان ويمدانه : ومن هنا يتبين انحراف اكثر الناس عن الايمان لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الارادة ولايتم الايمان الا بتلقى المعرفة من مشكاة النبوة وتجريد الارادة عن شوائب الهوي وارادة الخلق فيكون علمه مقتبسا من مشكاة الوحى وارادته لله والدار الآخرة فهذا أصح الناس علما وعملا وهو من الأئمة الذين يهدون بامر الله ومن خلفاء رسوله فى أمته *

قاعدة

الايمان له ظاهر وباطن وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له وان حقن به الدماء وعصم به المال والذرية ولا يجزىء باطن لاظاهر له الا اذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك : فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل علي فساد الباطن وخلوه من الايمان ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته * فالايمان قلب الاسلام ولبه :

واليقين قلب الايمان ولبه : وكل علم وعمل لايزيد الايمان واليقين قوة فمدخول : وكل ايمان لايبعث علي العمل فمدخول *

قاعده

التوكل على الله نوعان . احدهما توكل عليه فى جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية او دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية : والثاني التوكل عليه فى حصول مايحبه هو ويرضاه من الايمان واليقين والجهاد والدعوة اليه : وبين النوعين من الفضل مالايحصيه الا الله فمتي توكل عليه العبد فى النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ومتي توكل عليه فى النوع الأول دون الثاني كفاه أيضا لكن لايكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه * فاعظم التوكل عليه التوكل فى الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل فهذا توكل الرسل وخاصة اتباعهم *

والتوكل تارة يكون توكل اضطرار والجاء بحيث لايجد العبد ملجأ ولاوزراً الا التوكل كما اذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لاملجأ من الله الا اليه وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة : وتارة يكون توكل اختيار وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي الى المراد فان كان السبب مأموراً به ذم على تركه وان قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً فانه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن والواجب القيام بهما والجمع بينهما : وان كان السبب محرما حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه فى التوكل فلم يبق سبب سواه فان التوكل من أقوى الأسباب فى حصول المراد ودفع المكروه بل هو أقوى الأسباب على الاطلاق : وان كان السبب مباحاً نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه فان أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى وان لم يضعفه فمباشرته أولى لان حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته

مهما أمكنك القيام بها ولا سيما اذا فعلته عبودية فتكون قدأتيت بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوى به القربة والذى يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها فمن عطلها لم يصح توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية الي حصول الخير يحقق رجاءه فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنياً كما أن من عطلها يكون توكله عجزاً وعجزه توكلا ☆

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب علي الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون اليها كما لا ينفعه قوله توكلت علي الله مع اعتماده على غيره وركونه اليه وثقته به فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء كما أن توبة اللسان مع اصرار القلب شيء وتوبة القلب وان لم ينطق اللسان شيء : فقول العبد توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله تبت الي الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها ☆

فايده

الجاهل يشكو الله الي الناس وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو اليه فانه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكا اليهم ورأى بعض السلف رجلا يشكو الي رجل فاقته وضرورته فقال يا هذا والله ما زدت على ان شكوت من يرحمك الى من لا يرحمك وفى ذلك قيل :

واذا شكوت الي ابن آدم انما ☆ تشكو الرحيم الى الذى لا يرحم

والعارف انما يشكو الي الله وحده : وأعرف العارفين من جعل شكواه الي الله من نفسه لا من الناس فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه فهو ناظر الى قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقوله (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا

قل هو من عند أنفسكم) فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله الى خلقه: وأعلاها أن تشكو نفسك اليه: وأوسطها أن تشكو خلقه اليه *

قاعدة جليلة

قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون) فتضمنت هذه الآية أموراً : أحدها ان الحياة النافعة انما تحصل بالاستجابة لله ورسوله فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وان كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات: فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً فهؤلاء هم الأحياء وان ماتوا وغيرهم أموات وان كانوا أحياء الأبدان : ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول فان كل ما دعا اليه ففيه الحياة فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول قال مجاهد (لما يحييكم) يعني للحق : وقال قتادة هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة : وقال السدى هو الاسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر : وقال ابن اسحق وعروة بن الزبير واللفظ له (لما يحييكم) يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل : وقواكم بعد الضعف : ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم وهذه كل عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً وباطناً : قال الواحدي والأكثرون على ان معنى قوله (لما يحييكم) هو الجهاد وهو قول ابن اسحق واختيار أكثر أهل المعاني : قال الفراء اذا دعاكم الي احياء أمركم بجهاد عدوكم يريد ان أمرهم انما يقوى بالحرب والجهاد فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم * ﴿ قلت ﴾ الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة أما في الدنيا فان قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد: وأما في البرزخ فقد قال تعالى (ولا تحسبن

الذين قتلوا فى سبيل أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) وأما فى الآخرة فان حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم : ولهذا قال ابن قتيبة (لما يحييكم) يعني الشهادة : وقال بعض المفسرين (لما يحييكم) يعني الجنة فانها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة حكاه أبوعلي الجرجاني: والآية تتناول هذا كله فان الايمان والاسلام والقرآن والجهاد يحيى القلوب الحياة الطيبة وكمال الحياة فى الجنة والرسول داع الي الايمان والى الجنة فهو داع الى الحياة فى الدنيا والآخرة والانسان مضطر الى نوعين من الحياة حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره ومتي نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك وحياة قلبه وروحه التى بها يميز بين الحق والباطل والغى والرشاد والهوى والضلال فيختار الحق علي ضده فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار فى العلوم والارادات والأعمال وتفيده قوة الايمان والارادة والحب للحق وقوة البغض والكراهة للباطل: فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة كما ان البدن الحيّ يكون شعوره واحساسه بالنافع والمؤلم أتم ويكون ميله الي النافع ونفرته عن المؤلم أعظم فهذا بحسب حياة البدن وذاك بحسب حياة القلب فاذا بطلت حياته بطل تمييزه وان كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع علي الضار كما ان الانسان لا حياة له حتي ينفخ فيه الملك الذى هو رسول الله من روحه فيصير حياً بذلك النفخ وكان قبل ذلك من جملة الأموات فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذى ألقى اليه قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره علي من يشاء من عباده) :وقال (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) وقال (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) فاخبر أن وحيه روح ونور فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول

الملكي فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان : ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له احدى الحياتين وفاتته الأخرى قال تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة: قال ابن عباس وجميع المفسرين كان كافراً ضالا فهديناه *

وقوله (وجعلنا له نورا يمشي به فى الناس) يتضمن امورا : أحدها انه يمشي في الناس بالنور وهم فى الظلمة فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها ويرى مايحذره فيها : وثانيها انه يمشي فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم الى النور : وثالثها انه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط اذا بقى اهل الشرك والنفاق فى ظلمات شركهم ونفاقهم *

وقوله (واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه) المشهور فى الآية انه يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الايمان ويحول بين اهل طاعته وبين معصيته و بين أهل معصيته وبين طاعته وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين : وفى الآية قول آخر ان المعنى انه سبحانه قريب من قلبه لاتخفى عليه خافية فهو بينه وبين قلبه: ذكره الواحدي عن قتادة وكان هذا انسب بالسياق لأن الاستجابة اصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب فان الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه : وعلي القول الأول فوجه المناسبة انكم ان تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلايمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم علي تركها بعد وضوح الحق واستبانته فيكون كقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله

(فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وان استجاب بالجوارح : وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة وبين القدر والايمان به فهي كقوله (لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن الا أن يشاء الله رب العالمين) وقوله (فمن شاء ذكره وما يذكرون الا أن يشاء الله) والله أعلم ☆

فائدة جليلة

قوله تعالي (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وقوله عز وجل (وان كرهتموهن فعسي أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) فالآية الأولي في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية : والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية علي نفسه منه وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده: ويحب الموادعة والمتاركة وهذا المحبوب شر له في معاشه ومعاده : وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله في امساكها خير كثير لا يعرفه ويحب المرأة لوصف من أوصافها وله في امساكها شر كثير لا يعرفه : فالانسان كما وصفه به خالقه (ظلوم جهول) فلا ينبغي أن يجعل المعيار علي ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه بل المعيار علي ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه: فانفع الاشياء له علي الاطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه وأضر الأشياء عليه علي الاطلاق معصيته بظاهره وباطنه فاذا قام بطاعته وعبوديته مخلصاً له فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيراً له واذا تخلي عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً ان المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها

ضروب من المصالح والمنافع التى لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب .

فعامة مصالح النفوس فى مكروهاتها كما ان عامة مضارها وأسباب هلكتها فى محبوباتها فانظر الى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحه غرس جنة وتعاهدها بالسقى والاصلاح حتي أثمرت أشجارها فاقبل عليها يفصل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه انها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة حتي اذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها اقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفةالتي تذهب قوتها ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها لتصلح ثمرتها ان تكون بحضرة الملوك ثم لايدعها ودواعى طبعها من الشرب كل وقت بل يعطشها وقتا ويسقيها وقتا ولا يترك الماء عليها دائما وان كان ذلك انضر لورقها واسرع لنباتها ثم يعمد الى تلك الزينة التى زينت بها من الأوراق فيلقى عنها كثيرا منها لان تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما فى شجر العنب ونحوه فهو يقطع اعضاءها بالحديد ويلقى عنها كثيرا من زينتها وذلك عين مصلحتها فلو انها ذات تمييز وادراك كالحيوان لتوهمت ان ذلك إفساد لها واضرار بها وانما هو عين مصلحتها *

وكذلك الأب الشفيق علي ولده العالم بمصلحته اذا رأى مصلحته فى اخراج الدم الفاسد عنه بضع جلده وقطع عروقه واذاقه الالم الشديد : وان رأى شفاءه فى قطع عضو من أعضائه أبانه عنه كل ذلك رحمة به وشفقة عليه : وان رأى مصلحته فى ان يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه لعلمه ان ذلك أكبر الأسباب الى فساده وهلاكه : وكذلك يمنعه كثيراً من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلا عليه .فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم اذا أنزل بهم ما يكرهون كان خيراً لهم من أن لا ينزله بهم نظراً منه لهم واحساناً اليهم ولطفاً بهم ولو مكنوا من الاختيار لانفسهم

لعجزوا عن القيام بمصالحهم علماً وارادة وعملا لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته أحبوا أم كرهوا فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه فى شيء من أحكامه وخفي ذلك علي الجهال به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره وقدحوا فى حكمته ولم ينقادوا لحكمه وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا والله الموفق ٭

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة فى جنة لا يشبه نعيمها الا نعيم جنة الآخرة فانه لا يزال راضياً عن ربه والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين فانه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير التى هى عين اختيار الله له وطمأنينتها الى أحكامه الدينية وهذا هو الرضا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولا وماذاق طعم الايمان من لم يحصل له ذلك وهذا الرضاهو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضي فقضاء الرب سبحانه فى عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة لا يخرج عن ذلك البتة كما قال صلى الله عليه وسلم فى الدعاء المشهور «اللهم اني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فيّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزني وذهاب همى وغمى ما قالها أحد قط الا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرجا قالوا أفلا نتعلمهن يا رسول الله قال بلى ينبغى لمن يسمعهن أن يتعلمهن» ٭

والمقصود قوله «عدل فىّ قضاؤك» وهذا يتناول كل قضاء يقضيه علي عبده من عقوبة أو ألم وسبب ذلك فهو الذي قضى بالسبب وقضي بالمسبب وهو عدل فى هذا القضاء وهذا القضاء خير المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم «والذى نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن» قال العلامة ابن القيم فسألت شيخنا هل يدخل فى ذلك قضاء الذنب فقال نعم بشرطه

فاجمل فى لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك ٭

فائدة

لا تتم الرغبة فى الآخرة الا بالزهد فى الدنيا ولا يستقيم الزهد فى الدنيا الا بعد نظرين صحيحين: نظر فى الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ومافى ذلك من الغصص والنغص والانكاد وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم فى حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها فهذا أحد النظرين ٭

﴿النظر الثاني﴾ النظر فى الآخرة واقبالها ومجيئها ولا بد ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذى بينه وبين ما هنا فهى كما قال الله سبحانه (والآخرة خير وأبقى) فهى خيرات كاملة دائمة وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة فاذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل ايثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة الى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة الا اذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته فى الأعلى الأفضل فاذا آثر الفاني الناقص كان ذلك اما لعدم تبين الفضل له وأما لعدم رغبته في الافضل ٭

وكل واحد من الامرين يدل على ضعف الايمان وضعف العقل والبصيرة فان الراغب فى الدنيا الحريص عليها المؤثر لها اما أن يصدق بان ما هناك أشرف وأفضل وأبقى وإما أن لا يصدق فان لم يصدق بذلك كان عادما للايمان رأساً وان صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيء الاختيار لنفسه وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه فايثار الدنيا على الآخرة

أما من فساد فى الايمان واما من فساد فى العقل وما أكثر ما يكون منهما ولهذا نبذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا اليها وعدوها سجنا لا جنة فزهدوا فيها حقيقة الزهد ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب ولوصلوا منها الى كل مرغوب فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر وانها دار عبور لا دار سرور وانها سحابة صيف تنقشع عن قليل وخيال طيف ما استتم الزيارة حتي أذن بالرحيل ٭ قال النبي صلى الله عليه وسلم «مالى وللدنيا انما أنا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال «ما الدنيا فى الآخرة الا كما يدخل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بما ترجع» وقال خالقها سبحانه (أنما مثل حياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون والله يدعو الي دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم) فاخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها وأخبر عن دار السلام ودعا اليها : وقال تعالي (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) وقال تعالى (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) وقال تعالي (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن

المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) وقال تعالي (وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة الا متاع) *

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا وأطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه فقال (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وعير سبحانه من رضى بالدنيا من المؤمنين فقال (يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الي الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل) وعلي قدر رغبة العبد فى الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة: ويكفى فى الزهد فى الدنيا قوله تعالي (أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدن ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) وقوله (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثو الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون) وقوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها) وقوله (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) وقوله (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وقوله (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما) والله المستعان وعليه التكلان *

……………

قاعدة

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع اليه أن لا يقطعها عنك وان السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل اليه أن يحول بينك وبينها ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات الى نفسك وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد وكل شر فأصله خذلانه لعبده: وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله الي نفسك وان الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك فاذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة اليه فتي أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ومتي أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجا دونه *

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اني لا أحمل هم الاجابة ولكن هم الدعاء فاذا ألهمت الدعاء فان الاجابة معه: وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته فى ذلك يكون توفيقه سبحانه واعانته: فالمعونة من الله تنزل علي العباد علي قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم: والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان فى مواضعه اللائقة به وهو العليم الحكيم وما أتي من أتي الا من قبل أضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه الا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء: وملاك ذلك الصبر فانه من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد فاذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد * ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله * خلقت النار لاذابة القلوب القاسية * أبعد القلوب من الله القلب القاسي * اذا قسي القلب قحطت العين: قسوة القلب من أربعة أشياء اذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة كما

أن البدن اذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب اذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ * من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته * القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها * القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها اليه أرقها وأصلبها وأصفاها * شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت فى معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت الي أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد * اذا غذى القلب بالتذكر وسقى بالتفكر ونقى من الدغل رأى العجائب وألهم الحكمة * ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوي وأما من قتل قلبه فأحيي الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه * خراب القلب من الأمن والغفلة وعمارته من الخشية والذكر * اذا زهدت القلوب فى موائد الدنيا قعدت علي موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة واذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد * الشوق الي الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا * من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق * لا تدخل محبة الله فى قلب فيه حب الدنيا الا كما يدخل الجمل فى سم الابرة * اذ أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته * والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه فى التوبة والحمية ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر ويعري كما يعري الجسم وزينته التقوى ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة * إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ماسواه بد ولا بد لك منه * من ترك الاختيار والتدبير فى طلب زيادة دنيا أو جاء أو فى خوف نقصان أو فى التخلص من عدو توكلا علي الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له فالقى كنفه بين يديه وسلم الأمر اليه ورضي بما يقضيه له استراح من

الهموم والغموم والأحزان ومن أبي الا تدبيره لنفسه وقع فى النكد والنصب وسوء الحال والتعب فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم والله سبحانه سهل لخلقه السبيل اليه وحجبهم عنه بالتدبير فمن رضى بتدبير الله له وسكن الى اختياره وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب فأفضي القلب الى ربه واطمأن اليه وسكن : المتوكل لا يسأل غير الله ولا يرد علي الله ولا يدخر مع الله * من شغل بنفسه شغل عن غيره ومن شغل بربه شغل عن نفسه * الاخلاص هو مالا يعلمه ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا يعجب به صاحبه فيبطله * الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام * الناس فى الدنيا معذبون على قدر هممهم بها * للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها ثلاثة سافلة وثلاثة عالية فالسافلة دنيا تتزين له ونفس تحدثه وعدو يوسوس له فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها والثلاثة العالية علم يتبين له وعقل يرشده وا له يعبده والقلوب جوالة فى هذه المواطن * اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد فان اتباع الهوي يعمى عن الحق معرفة وقصداً وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها * لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره * اذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفاً بذنبه ممسكا عن ذنب غيره جواداً بما عنده زاهداً فيما عند غيره محتملا لأذي غيره وان أراد به شراً عكس ذلك عليه * الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء تعرّف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة: وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكر او طاعة : وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية فاذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى أودية الوساوس والخطرات * من عشق الدنيا نظرت الي قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها واذلته ومن أعرض عنها نظرت (١) الي كبر قدره فخدمته وذلت له * انما يقطع السفر

(١) التاء تاء التأنيث والفاعل ضمير يعود الي الدنيا

ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل فاذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل الى مقصده ٭

فائدة جليلة

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول علي الله غير الحق فى فتواه وحكمه في خبره والزامه لان أحكام الرب سبحانه كثيرا ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات فانهم لا تتم لهم أغراضهم الا بمخالفة الحق ودفعه كثيرا فاذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك الا بدفع ما يضاده من الحق ولا سيما اذا قامت له (١) شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق وان كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال لي مخرج بالتوبة :وفى هؤلاء وأشباههم قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) وقال تعالى فيهم أيضا (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدني ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدني مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا وان عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك أولا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه فتارة يقولون على الله مالا يعلمون : وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه ٭

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا فلا يحملهم

---

(١) الضمير هنا راجع لفظ كل الاول لا للعالم والحاكم فليتفطن لذلك

حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة: وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ويستعينوا بالصبر والصلاة ويتفكروا فى الدنيا وزوالها وخستها والآخرة واقبالها ودوامها: وهؤلاء لابد أن يبتدعوا فى الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران فان اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيري البدعة سنة والسنة بدعة فهذه آفة العلماء اذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات: وهذه الآيات فيهم الى قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الي الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه *

﴿ وتأمل ﴾ ما تضمنته هذه الآية من ذمه وذلك من وجوه : أحدها أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الايمان عمدا لا جهلا : وثانيها أنه فارق الايمان مفارقة من لا يعود اليه أبدا فانه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها : وثالثها أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ولهذا قال فاتبعه الشيطان ولم يقل تبعه فان فى معنى اتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعني : ورابعها أنه غوى بعد الرشد : والغى الضلال فى العلم والقصد وهو أخص بفساد القصد والعمل كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر وإن اقترنا فالفرق ما ذكر : وخامسها أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالا عليه فلو لم يكن عالما كان خيراً له وأخف لعذابه : وسادسها أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه اختار الاسفل الادني على الاشرف الاعلى: وسابعها أن اختياره للادني لم يكن عن خاطر وحديث نفس ولكنه كان عن اخلاد الى الارض وميل بكليته الى ما هناك وأصل الاخلاد اللزوم على الدوام

كأنه قيل لزم الميل الى الارض : ومن هذا يقال أخلد فلان بالمكان اذا لزم الاقامة به قال مالك بن نويرة

بأبناء حى من قبائل مالك ☆ وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله الى الدنيا باخلاده الى الارض لان الدنيا هي الارض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع ☆ وثامنها أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه اماما له يقتدى به ويتبعه ☆ وتاسعها أنه شبهه بالكلب الذى هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفسا وأبخلها وأشدها كلبا ولهذا سمى كلبا ☆ وعاشرها أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتي تركه والحمل عليه بالطرد وهكذا: هذا ان ترك فهو لهثان على الدنيا وان وعظ وزجر فهو كذلك فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب : قال ابن قتيبة كل شىء يلهث فانما يلهث من اعياء أو عطش الا الكلب فانه يلهث فى حال الكلال وحال الراحة وحال الرى وحال العطش فضربه الله مثلا لهذا الكافر فقال ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال كالكلب ان طردته لهث وإن تركته على حاله لهث وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وانما وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأشنعه ☆

فصل

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه ولهذا قال سفيان ابن عيينة وغيره احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه وذاك بغيه يدعو الى الفجور: وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله (كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني برىء منك اني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما

أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) وقصته معروفة فانه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل فاوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدرى وذاك امام كل عالم فاجر يختار الدنيا على الآخرة وقد جعل سبحانه رضى العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه ولا يجتمع هذان أعنى الرضي بالدنيا والغفلة عن آيات الرب الا فى قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد والا فلو رسخ قدمه فى الايمان بالمعاد لما رضى الدنيا ولا اطمأن اليها ولا أعرض عن آيات الله: وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمار الدنيا : وأقل الناس عدداً من هو على خلاف ذلك وهو من أشد الناس غربة بينهم لهم شأن وله شأن علمه غير علومهم وإرادته غير إرادتهم وطريقه غير طريقهم فهو فى واد وهم فى واد قال تعالي (ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة اليها ودوام ذكر آياته فهذه مواريث الايمان بالمعاد وتلك موارث عدم الايمان به والغفلة عنه *

فائدة عظيمة

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة هو العلم والايمان ولهذا قرن بينهما سبحانه فى قوله (وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) وقوله (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية ولكن أكثر الناس غالطون فى حقيقة مسمى العلم والايمان اللذين بهما

السعادة والرفعة وفى حقيقتهما حتى ان كل طائفة تظن ان ما معها من العلم والايمان هو هذا الذى به تنال السعادة وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم ايمان ينجى ولا علم يرفع بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والايمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا اليهما الأمة وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم *

فكل طائفة اعتقدت ان العلم ما معها وفرحت به وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون: واكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص والعلم وراء الكلام كما قال حماد بن زيد قلت لايوب العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم فقال الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر *

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام فالكتب كثيرة جداً والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة والعلم بمعزل عن أكثرها وهو ما جاء به الرسول عن الله قال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) وقال (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم) وقال فى القرآن (أنزله بعلمه) أى وفيه علمه *

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس الى أن اتخذوا هواجس الافكار وسوانح الخواطر والآراء علماً ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الانفاس فضيعوا فيها الزمان وملأوا بها الصحف مداداً والقلوب سواداً حتى صرح كثير منهم انه ليس فى القرآن والسنة علم وأن أدلتهما لفظية لا تفيد يقينا ولا علما وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم وأذن بها بين أظهرهم حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم فانسلخت بها القلوب من العلم والايمان كانسلاخ الحية من قشرها والثوب عن لابسه: قال الامام العلامة شمس الدين ابن القيم ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض اتباع اتباع تلاميذ هؤلاء انه رآه يشتغل فى بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن فقال له لو حفظت القرآن أولا كان أولي فقال وهل في القرآن علم قال ابن القيم وقال لي بعض أئمة هؤلاء انما نسمع الحديث لاجل البركة لا لنستفيد

منه العلم لان غيرنا قد كفانا هذه المؤونة فعمدتنا على ما فهموه وقرروه ولا شك ان من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل

نزلوا بمكة فى قبائل هاشم * ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال وقال لي شيخنا مرة فى وصف هؤلاء انهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب ويكفيك دليلا على أن هذا الذى عندهم ليس من عند الله ما نرى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض قال تعالي (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)وهـذا يدل على ان ما كان من عنده سبحانه لا يختلف وأن ما اختلف وتناقض فليس من عنـده وكيف تكون الآراء والخيـالات وسوانح الافـكار ديناً يدان به ويحكم به على الله ورسوله سبحانك هذا بهتان عظيم *

وقد كان علم الصحابة الذى يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكى الحاكم فى ترجمة أبي عبدالله البخارى قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمعوا انما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم ليس بينهم رأى ولا قياس* ولقد أحسن القائل

العلم قال الله قال رسوله * قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة * بين الرسول وبين رأى فقيه

كلا ولا جحد الصفات ونفيها * حذراً من التمثيل والتشبيه

فصل

وأما الايمان فأكثر الناس أو كلهم يدعونه وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين: وأكثر المؤمنين انما عندهم ايمان مجمل وأما الايمان المفصل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة وعلماً وإقراراً ومحبة ومعرفة بضده وكراهيته وبغضه فهذا ايمان

خواص الامة وخاصة الرسول وهو ايمان الصديق وحزبه : وكثير من الناس حظهم من الايمان الاقرار بوجود الصانع وأنه وحده هو الذي خلق السموات والارض وما بينهما وهذا لم يكن ينكره عباد الأصنام من قريش ونحوهم : وآخرون الايمان عندهم هو التكلم بالشهادتين سواء كان معه عمل أو لم يكن وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه : وآخرون عندهم الايمان مجرد تصديق القلب بأن الله سبحانه خالق السموات والارض وأن محمداً عبده ورسوله وان لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئا بل ولو سب الله ورسوله وأتى بكل عظيمة وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن : وآخرون عندهم الايمان هو جحد صفات الرب تعالي من علوه على عرشه وتكلمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشيئته وقدرته وارادته وحبه وبغضه وغير ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله فالايمان عندهم انكار حقائق ذلك كله وجحده والوقوف مع ما تقتضيه آراء المتهوكين وأفكار المخرصين الذين يرد بعضهم على بعض وينقض بعضهم قول بعض الذين هم كما قال عمر بن الخطاب والامام أحمد مختلفون فى الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مفارقة الكتاب : وآخرون عندهم الايمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول : وآخرون الايمان عندهم ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائنا ما كان بل ايمانهم مبنى على مقدمتين : احداهما أن هذا قول أسلافنا وآبائنا : والثانية أن ما قالوه فهو الحق : وآخرون عندهم الايمان مكارم الاخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه واحسان الظن بكل أحد وتخلية الناس وغفلاتهم : وآخرون عندهم الايمان التجرد من الدنيا وعلائقها وتفريغ القلب منها والزهد فيها فاذا رأوا رجلا هكذا جعلوه من سادات أهل الايمان وان كان منسلخا من الايمان علما وعملا : وأعلي من هؤلاء من جعل الايمان هو مجرد العلم وان لم يقارنه عمل وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الايمان ولا قاموا به ولا قام بهم وهم أنواع · منهم من جعل الايمان ما يضاد الايمان : ومنهم

من جعل الايمان مالا يعتبر فى الايمان : ومنهم من جعله ما هو شرط فيه ولا يكفى في حصوله : ومنهم من اشترط فى ثبوته ما يناقضه ويضاده : ومنهم من اشترط فيه ما ليس منه بوجه *

الايمان

والايمان وراء ذلك كله وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علما والتصديق به عقدا والاقرار به نطقا والانقياد له محبة وخضوعا والعمل به باطنا وظاهرا وتنفيذه والدعوة اليه بحسب الامكان وكماله في الحب فى الله والبغض فى الله والعطاء لله والمنع لله وأن يكون الله وحده الهه ومعبوده : والطريق اليه تجريد متابعة رسوله ظاهرا وباطنا : وتغميض عين القلب عن الالتفات الي سوى الله ورسوله وبالله التوفيق * من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه :ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس : ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله الي نفسه :ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله اليهم *

فائدة جليلة

انما يجد المشقة فى ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله فأما من تركها صادقا مخلصا من قلبه لله فانه لا يجد فى تركها مشقة الا فى أول وهلة ليمتحن أصادق هو فى تركها أم كاذب فان صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة: قال ابن سيرين سمعت شريحاً يحلف بالله ما ترك عبد لله شيئاً فوجد فقده وقولهم من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه حق والعوض أنواع مختلفة وأجل مايعوض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى *

أغبى الناس من ضل فى اخر سفره وقد قارب المنزل * العقول المؤيدة

بالتوفيق ترى ان ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة: والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع * أقرب الوسائل الى الله ملازمة السنة والوقوف معها فى الظاهر والباطن ودوام الافتقار الى الله وإرادة وجهه وحده بالاقوال والافعال وما وصل أحد الي الله الا من هذه الثلاثة وما انقطع عنه أحد الا بانقطاعه عنها أوعن أحدها * الاصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة ولكل واحد منها ضد فمن فقد ذلك الاصل حصل علي ضده : التوحيد وضده الشرك : والسنة وضدها البدعة : والطاعة وضدها المعصية :ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة فى الله وفيما عنده ومن الرهبة منه ومما عنده *

قاعدة جليلة

قال الله تعالي (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وقال (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى) الآية :والله تعالى قدبين فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة وسبيل المجرمين مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة وعاقبة هؤلاء مفصلة: وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء :وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء :والاسباب التى وفق بها هؤلاء والاسباب التى خذل بها هؤلاء :وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الابصار للضياء والظلام *

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل الي مقصوده والطريق الموصل الى الهلكة :فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم وهم الادلاء الهداة وبذلك برز الصحابة علي جميع من أتي بعدهم الى يوم

القيامة فانهم نشأوا فى سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة الي الهلاك وعرفوها مفصلة ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات الى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم فخرجوا من الظلمة الشديدة الى النور التام ومن الشرك الى التوحيد ومن الجهل الى العلم ومن الغى الى الرشاد ومن الظلم الى العدل ومن الحيرة والعمى الى الهدى والبصائر فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه فان الضد يظهر حسنه الضد وانما تتبين الأشياء بأضدادها فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا اليه ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه وكانوا أحب الناس فى التوحيد والايمان والاسلام وأبغض الناس فى ضده عالمين بالسبيل على التفصيل *

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ فى الاسلام غير عالم تفصيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين فان اللبس انما يقع اذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب . انما تنقض عري الاسلام عروة عروة اذا نشأ فى الاسلام من لم يعرف الجاهلية :وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه فانه اذا لم يعرف الجاهلية وحكمها وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فانه من الجاهلية فانها منسوبة الى الجهل وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظن فى بعض سبيلهم انها من سبيل المؤمنين كما وقع فى هذه الأمة من أمور كثيرة فى باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل أدخلها من لم يعرف انها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا اليها وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا اليها وكفر من خالفها *

والناس فى هذا الموضع أربع فرق :الاولي من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملا وهؤلاء أعلم الخلق * الفرقة الثانية من

عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك * الفرقة الثالثة من صرف عنايته الى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وان لم يتصوره على التفصيل بل اذا سمع شيئا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه وهو بمنزلة من سلمت نفسه من ارادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه اليها نفسه بخلاف الفرقة الأولى فانهم يعرفونها وتميل اليها نفوسهم ويجاهدونها علي تركها لله : وقد كتبوا الى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيما أفضل رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله أو رجل نازعته اليها نفسه فتركها لله فكتب عمر ان الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم :وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه ايمانه ولا تورثه شبهة ولا شكا بل يزداد بمعرفتها بصيرة فى الحق ومحبة له وكراهة لها ونفرة عنها أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه فانه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به فيقوى ايمانه به كما ان صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب عنها الى ضدها ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه فما ابتلي الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه اليها الا ليسوقه بها الي محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول الى المحبوب الأعلى فكلما نازعته نفسه الى تلك الشهوات واشتدت ارادته لها وشوقه اليها صرف ذلك الشوق والارادة والمحبة الى النوع العالي الدائم فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك فانها وان كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم ألا ترى ان من مشي الى محبوبه على الجمر

والشوك أعظم ممن مشي اليه راكبا على النجائب فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها الى غيره فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجابا له عنه أو حاجبا له يوصله الى رضاه وقربه وكرامته * الفرقة الرابعة فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل المؤمنين مجملة وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك بل عرفه معرفة مجملة وان تفصلت له فى بعض الاشياء ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانا وكذلك من كان عارفا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكا لها اذا تاب ورجع عنها الى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره فى تصرفها وسلوكها.

والمقصود ان الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه الا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه والله أعلم *

أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم وأولياؤه المحبون له الذين هو همهم ومرادهم جلساؤه وخواصه فاذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك اذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع وسائر الناس مطرودون عن الباب مضروبون بسياط البعد *

فصل

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به: وعمل لا اخلاص فيه ولا اقتداء: ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه فى الدنيا ولا يقدمه

امامه الي الآخرة : وقلب فارغ من محبة الله والشوق اليه والأنس به : وبدن معطل من طاعته وخدمته : ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره : ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة : وفكر يجول فيما لا ينفع : وخدمة من لا تقربك خدمته الى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك : وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير فى قبضته ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا *

وأعظم هذه الاضاعات اضاعتان هما أصل كل اضاعة : اضاعة القلب واضاعة الوقت فاضاعة القلب من ايثار الدنيا على الآخرة واضاعة الوقت من طول الأمل فاجتمع الفساد كله فى اتباع الهوي وطول الأمل والصلاح كله فى اتباع الهدى والاستعداد للقاء والله المستعان . *

العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها الي الله ليقضيها له ولا يتصدي للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والاعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات ولكن اذا مات القلب لم يشعر بمعصيته *

فصل

لله سبحانه على عبده أمر أمره به وقضاء يقضيه عليه ونعمة ينعم بها عليه فلا ينفك من هذه الثلاثة : والقضاء نوعان اما مصائب واما معائب وله عليه عبودية فى هذه المراتب كلها فأحب الخلق اليه من عرف عبوديته فى هذه المراتب ووفاها حقها فهذا أقرب الخلق اليه وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب فعطلها علما وعملا : فعبوديته فى الأمر امتثاله اخلاصا واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم : وفى النهى اجتنابه خوفا منه واجلالا ومحبة : وعبوديته فى قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلي منه ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضاء وهذا إنما يتأتى منه اذا تمكن حبه من قلبه وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به

وإحسانه اليه بالمصيبة وان كره المصيبة وعبوديته فى قضاء المعائب المبادرة الى التوبة منها والتنصل والوقوف فى مقام الاعتذار والانكسار عالما بانه لا يرفعها عنه الا هو ولا يقيه شرها سواه وأنها إن استمرت أبعدته من قربه وطردته من بابه فيراها من الضر الذي لا يكشفه غيره حتى انه ليراها أعظم من ضر البدن فهو عائذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقوبته وبه منه مستجير وملتجىء منه اليه يعلم انه ان تخلى عنه وخلى بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشر منها وأنه لا سبيل له الى الاقلاع والتوبة الا بتوفيقه وإعانته وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتي بمرضاة سيده بدون إذنه ومشيئته وإعانته فهو ملتجىء اليه متضرع ذليل مسكين ملق نفسه بين يديه طريح ببابه مستخذله أذل شيء وأكسره له وأفقره وأحوجه اليه وأرغبه فيه وأحبه له بدنه متصرف في أشغاله وقلبه ساجد بين يديه يعلم يقيناً انه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه وان الخير كله لله وفي يديه وبه ومنه فهو ولي نعمته: ومبتدئه بها من غير استحقاق ومجريها عليه مع تمقته اليه باعراضه وغفلته ومعصيته فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء وحظ العبد الذم والنقص والعيب قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء وولى العبد الملامة والنقائص والعيوب فالحمد كله له والخير كله فى يديه والفضل كله له والثناء كله له والمنة كلها له فمنه الاحسان : ومن العبد الاساءة :ومنه التودد الي العبد بنعمه ومن العبد التبغض اليه بمعاصيه: ومنه النصح لعبده ومن العبد الغش له فى معاملته*

وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولا ثم العياذ به أن يقع فى قلبه نسبتها وإضافتها الي سواه وان كان سببا من الأسباب فهو مسببه ومقيمه فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها وشكره بأن يستعملها فى طاعته : ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه ويستقل كثير شكره عليها ويعلم انها وصلت اليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ولا وسيلة منه توسل

بها اليه ولا استحقاق منه لها وانها لله فى الحقيقة لا للعبد فلا تزيده النعم الا انكساراً وذلا وتواضعا ومحبة للمنعم: وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاوذلا : وكلما أحدث له قبضا أحدثله رضي : وكلما أحدث ذنبا أحدث له توبة وانكساراً واعتذاراً فهذا هو العبد الكيس والعاجز بمعزل عن ذلك وبالله التوفيق *

فصل

من ترك الاختيار والتدبير فى رجاء زيادة او خوف نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم وعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبدلنفسه وانه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر علي جلبها وتحصيلها منه وانصح للعبد منه لنفسه وأرحم به منه بنفسه وأبر به منه بنفسه وعلم مع ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدي تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة فلا متقدم له بين يدي قضائه وقدره ولا متأخر فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله اليه وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدي ملك عزيز قاهر له التصرف في عبده بكل ما يشاء وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه فاستراح حينئذ من الهموم والغموم والأنكاد والحسرات وحمل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالي بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته واحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه لانه قد صرف اهتمامه كله اليه وجعله وحده همه فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرغ قلبه منها فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه وإن أبي الا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه دون حق ربه خلاه وما اختاره وولاه ما تولي فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال فلا قلب

يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها ولا لذة يتهنا بها بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرة عينه فهو يكدح فى الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل ولا يتزود منها لمعاد والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضمانا فان قام بأمره بالنصح والصدق والاخلاص والاجتهاد قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج فانه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده والنصر لمن توكل عليه واستنصر به والكفاية لمن كان هو همه ومراده والمغفرة لمن استغفره وقضاء الحوائج لمن صدقه فى طلبها ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه فى فضله وجوده : فالفطن الكيس انما يهتم بأمره وإقامته وتوفيته لا بضمانه فانه الوفي الصادق ومن أوفى بعهده من الله : فمن علامات السعادة صرف اهتمامه الى أمر الله دون ضمانه : ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه والله المستعان *

قال بشر بن الحارث أهل الآخرة ثلاثة عابد وزاهد وصديق: فالعابد يعبد الله مع العلائق: والزاهد يعبده على ترك العلائق: والصديق يعبده على الرضا والموافقة أن أراه أخذ الدنيا أخذها وان أراه تركها تركها * إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر فان ذلك يفضي الى المشاقة والمحادة وهذا أصلها ومنه اشتقاقها فان المشاقة أن يكون فى شق ومن يخالفه فى شق : والمحادة ان يكون فى حد وهو فى حد ولا تستسهل هذا فان مبادئه تجر الى غايته وقليله يدعو الى كثيره وكن فى الجانب الذى فيه الله ورسوله وان كان الناس كلهم فى الجانب الآخر فان لذلك عواقب هى أحمد العواقب وأفضلها وليس للعبد أنفع من ذلك فى دنياه قبل آخرته وأكثر الخلق انما يكونون من الجانب الآخر ولا سيما اذا قويت الرغبة والرهبة فهناك لا تكاد تجد أحداً فى الجانب الذى فيه الله ورسوله بل يعده الناس ناقص العقل سيء الاختيار لنفسه وربما نسبوه الي الجنون وذلك من مواريث أعداء الرسل فانهم نسبوهم الي الجنون لما كانوا فى شق

وجانب والناس فى شق وجانب آخر ولكن من وطن نفسه على ذلك فانه يحتاج الى علم راسخ بما جاء الرسول يكون يقينا له لا ريب عنده فيه والي صبر تام علي معاداة من عاداه ولومة من لامه ولا يتم له ذلك الا برغبة قوية فى الله والدار الآخرة بحيث تكون الآخرة أحب اليه من الدنيا وآثر عنده منها ويكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وليس شيء أصعب علي الانسان من ذلك فى مبادىء الأمر فان نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وإخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه الى العاجل فاذا خالفهم تصدوا لحربه فان صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلا وذلك الألم لذة فان الرب شكور فلا بد أن يذيقه لذة تحيزه الي الله والى رسوله ويريه كرامة ذلك فيشتد به سروره وغبطته ويبتهج به قلبه ويظفر بقوته وفرحه وسروره ويبقى من كان محاربا له على ذلك بين هائب له ومسالم له ومساعد وتارك ويقوى جنده ويضعف جند العدو : ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز الى الله ورسوله ولو كنت وحدك فان الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك وانما امتحن يقينك وصبرك : وأعظم الأعوان لك علي هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع فمتي تجردت منهما هان عليك التحيز الى الله ورسوله وكنت دائما فى الجانب الذي فيه الله ورسوله ومتي قام بك الطمع والفزع فلا تطمع فى هذا الأمر ولا تحدث نفسك به ﴿فان قلت﴾ فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع قلت بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيآت الا هو وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شيء *

نصيحة

هلم الي الدخول على الله ومجاورته فى دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها وذلك أنك فى وقت بين وقتين وهو فى الحقيقة

عمرك وهو وقتك الحاضر بين ما مضي وما يستقبل فالذى مضي تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق انما هو عمل قلب : وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملا بالجوارح يشق عليك معاناته وانما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك فما مضى تصلحه بالتوبة وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية وليس للجوارح فى هذين نصب ولا تعب ولكن الشأن فى عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين فان أضعته أضعت سعادتك ونجاتك وان حفظته مع اصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم : وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده فان حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلا لسعادتها وفى هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت فهى والله أيامك الخالية التى تجمع فيها الزاد لمعادك إما الي الجنة وإما الى النار فان اتخذت اليها سبيلا الى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التى لا نسبة لها الى الأبد وان آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة واعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته اشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله *

فصل

علامة صحة الارادة أن يكون هم المريد رضا ربه واستعداده للقائه وحزنه على وقت مر في غير مرضاته وأسفه على قربه والأنس به وجماع ذلك أن يصبح ويمسي وليس له هم غيره *

..........ooooo..........

فصل

اذا استغنى الناس بالدنيا فاستغنَ أنت بالله واذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله : واذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله: واذا تعرفوا الى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا اليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت الي الله وتودد اليه تنل بذلك غاية العز والرفعة * قال بعض الزهاد ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكرا وصلاة أو قراة أو احسان فقال له رجل اني أكثر البكاء فقال انك ان تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مدل (١) بعملك وان المدل لا يصعد عمله فوق رأسه فقال أوصني فقال دع الدنيا لاهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها وكن فى الدنيا كالنحلة ان أكلت أكلت طيبا وأن أطعمت أطعمت طيبا وان سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه*

فصل

الزهد أقسام زهد في الحرام وهو فرض عين : وزهد فى الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة فان قويت التحقت بالواجب وان ضعفت كان مستحبا : وزهد فى الفضول: وزهد فيما لا يعنى من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره: وزهد فى الناس: وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه فى الله: وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى الله وفى كل ما شغلك عنه وأفضل الزهد إخفاء الزهد وأصعبه الزهد فى الحظوظ : والفرق بينه وبين الورع أن الزهد ترك مالا ينفع فى الآخرة والورع ترك ما يخشي ضرره فى الآخرة والقلب المعلق بالشهوات لا يصح له زهد ولا ورع *

---

(١) أي منبسط بعمله

قال يحيى بن معاذ عجبت من ثلاث : رجل يرائي بعمله مخلوقا مثله ويترك أن يعمله لله : و رجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً : ورجل يرغب فى صحبة المخلوقين ومودتهم والله يدعوه الى صحبته ومودته *

فائدة جليلة

قال سهل بن عبد الله ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهى لأن آدم نهى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه وابليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه * قلت هذه مسألة عظيمة لها شأن وهى أن ترك الأوامر أعظم عندالله من ارتكاب المناهى وذلك من وجوه عديدة : ﴿أحدها﴾ ما ذكره سهل من شأن آدم وعدو الله ابليس ﴿الثاني﴾ أن ذنب ارتكاب النهى مصدره فى الغالب الشهوة والحاجة وذنب ترك الأمر مصدره فى الغالب الكبر والعزة ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ويدخلها من مات علي التوحيد وان زنى وسرق * ﴿الثالث﴾ أن فعل المأمور أحبّ الى الله من ترك المنهى كما دل على ذلك النصوص كقوله صلى الله عليه وسلم « أحب الاعمال الي الله الصلاة على وقتها » وقوله « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلي يارسول الله قال ذكر الله » وقوله « واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » وغير ذلك من النصوص وترك المناهى عمل فانه كف النفس عن الفعل ولهذا علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر كقوله(ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا) (والله يحب المحسنين) وقوله (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) (والله يحب الصابرين) وأما فى جانب المناهَى فأكثر ما جاء النفي للمحبة كقوله (والله لا يحب الفساد) وقوله (والله لا يحب كل مختال فخور) وقوله (ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وقوله (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم) وقوله (ان الله لا يحب من

كان مختالا فخوراً) ونظائره : وأخبر في موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها كقوله (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) وقوله (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) *

اذا عرف هذا ففعل مايحبه سبحانه مقصود بالذات ولهذا يقدر مايكرهه ويسخطه لافضائه الى مايحب كما قدر المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء وحصول التوبة من العبد والتضرع اليه والاستكانة واظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه وحصول الموالاة والمعاداة لأجله وغير ذلك من الآثار التي وجودها بسبب تقديره مايكره أحب اليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها وهو سبحانه لايقدر مايحب لافضائه الى حصول مايكرهه ويسخطه كما يقدر مايكرهه لافضائه الى مايحبه فعلم أن فعل مايحبه احب اليه مما يكرهه ﴿يوضحه الوجه الرابع﴾ أن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهى مقصود لتكميل فعل المأمور فهو منهى عنه لاجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه كما نبه سبحانه على ذلك في النهى عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة: فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كمالها فالنهى عنها من باب المقصود لغيره والامر بالواجبات من باب المقصود لنفسه ﴿ يوضحه الوجه الخامس ﴾ أن فعل المأمورات من باب حفظ قوة الايمان وبقائها وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الايمان ويخرجها عن الاعتدال وحفظ القوة مقدم على الحمية فان القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة واذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة فالحمية مرادة لغيرها وهو حفظ القوة وزيادتها او بقاؤها ولهذا كلما قويت قوة الايمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها او كثرتها بحسب القوة وضعفها واذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة فتأمل هذا الوجه ﴿الوجه السادس﴾ أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه وترك المنهيات بدون ذلك لايحصل له شيئاً من ذلك فانه لو ترك جميع المنهيات ولم

يأت بالايمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئا و كان خالدا مخلدا فى النار وهذا يتبين ﴿ بالوجه السابع ﴾ أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو اما ناج مطلقا ان غلبت حسناته سيئاته وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته فمآله الى النجاة وذلك بفعل المأمور : ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناج ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد *

﴿فان قيل﴾ فهو انما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك قيل يكفى فى الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وان لم يأت بضد وجودى من الشرك بل متي خلا قلبه من التوحيد رأسا فلم يوحد الله فهو هالك وان لم يعبد معه غيره فاذا انضاف اليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهى عنه يوضحه ﴿ الوجه الثامن ﴾ ان المدعو الي الايمان إذا قال لا أصدق ولا أكذب ولا أحب ولا أبغض ولا أعبده ولا أعبد غيره كان كافرا بمجرد الترك والاعراض بخلاف ما اذا قال أنا أصدق الرسول وأحبه وأؤمن به وأفعل ما أمرني ولكن شهوتي وارادتي وطبعى حاكمة علىّ لا تدعني أترك ما نهاني عنه وأنا أعلم أنه قد نهاني وكره لى فعل المنهى ولكن لا صبر لى عنه فهذا لا يعد كافرا بذلك ولا حكمه حكم الأول فان هذا مطيع من وجه وتارك المأمور جملة لا يعد مطيعا بوجه ﴿ يوضحه الوجه التاسع ﴾ ان الطاعة والمعصية انما تتعلق بالأمر أصلا وبالنهى تبعا فالمطيع ممتثل المأمور والعاصي تارك المأمور : قال تعالي (لا يعصون الله ما أمرهم) وقال موسي لأخيه (ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى أفعصيت أمرى) وقال عمرو بن العاص عند موته أنا الذى أمرتني فعصيت ولكن لا آله الا أنت : وقال الشاعر * أمرتك أمرا جازما فعصيتنى

والمقصود من إرسال الرسل طاعة المرسل ولا تحصل الا بامتثال أوامره : واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه ولهذا لو اجتنب المناهى ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعا وكان عاصيا بخلاف ما لو أتي بالمامورات وارتكب

المناهي فانه وان عد عاصيا مذنباً فانه مطيع بامتثال الأمر عاص بارتكاب النهي بخلاف تارك الأمر فانه لا يعد مطيعا باجتناب المنهيات خاصة ﴿ الوجه العاشر ﴾ أن امتثال الامر عبودية وتقرب وخدمة وتلك العبادة التي خلق لاجلها الخلق كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فاخبر سبحانه أنه انما خلقهم للعبادة وكذلك انما أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه: فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك فانه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم بخلاف امتثال المأمور فانه أمر وجودي مطلوب الحصول وهذا يتبين ﴿ بالوجه الحادي عشر ﴾ وهو أن المطلوب بالنهي عدم الفعل وهو أمر عدمي والمطلوب بالأمر ايجاد فعل وهو أمر وجودى فمتعلق الامر الايجاد ومتعلق النهي الاعدام أو العدم وهو أمر لا كمال فيه الا اذا تضمن أمرا وجوديا فان العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة الا اذا تضمن أمرا وجوديا مطلقاً وذلك الامر الوجودى مطلوب مأمور به فعادت حقيقة النهي الي الأمر وان المطلوب به ما فى ضمن النهي من الامر الوجودى المطلوب به وهذا يتضح ﴿ بالوجه الثاني عشر ﴾ وهو ان الناس اختلفوا فى المطلوب بالنهي علي أقوال : أحدها أن المطلوب به كف النفس عن الفعل وحبسها عنه وهو أمر وجودى قالوا لان التكليف انما يتعلق بالمقدور والعدم المحض غير مقدور وهذا قول الجمهور : وقال أبوهاشم وغيره بل المطلوب عدم الفعل ولهذا يحصل المقصود من بقائه على العدم وان لم يخطر بباله الفعل فضلا ان يقصد الكف عنه ولو كان المطلوب الكف لكان عاصيا اذا لم يات به ولان الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه وهذا أحد قولى القاضي أبي بكر ولاجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب قال والمقصود بالنهي الابقاء على العدم الأصلي وهو مقدور : وقالت طائفة المطلوب بالنهي فعل الضد فانه هو المقدور وهو المقصود للناهي فانه انما نهاه عن الفاحشة طلباً

للعفة وهى المأمور بها ونهاه عن الظلم طلباً للعدل المأمور به وعن الكذب طلباً للصدق المأمور به وهكذا جميع المنهيات: فعند هؤلاء ان حقيقة النهي الطلب لضد المنهى عنه فعاد الامر الى ان الطلب انما تعلق بفعل المأمور *

والتحقيق ان المطلوب نوعان مطلوب لنفسه وهو المأمور به ومطلوب اعدامه لمضادته المأمور به وهو المنهي عنه لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به فاذا لم يخطر ببال المكلف ولا دعته نفسه اليه بل استمر على العدم الأصلي لم يثب على تركه وان خطر بباله وكف نفسه عنه لله وتركه اختيارا أثيب على كف نفسه وامتناعه فانه فعل وجودي والثواب انما يقع علي الأمر الوجودي دون العدم المحض وان تركه مع عزمه الجازم على فعله لكن تركه عجزا فهذا وان لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وارادته الجازمة التى انما تخلف مرادها عجزا وقد دلت علي ذلك النصوص الكثيرة فلا يلتفت الي ما خالفها كقوله تعالى (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وقوله فى كاتم الشهادة (فانه آثم قلبه) وقوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وقوله (يوم تبلي السرائر) وقوله ﷺ « إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا هذا القاتل فما بال المقتول قال انه أراد قتل صاحبه » وقوله في الحديث الآخر « ورجل قال لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء » وقول من قال ان المطلوب بالنهى فعل الضد ليس كذلك فان المقصود عدم الفعل والتلبس بالضدين فان ما لا يتم الواجب الا به فهو غير مقصود بالقصد الأول وان كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذي نهى عما يمنعه ويضعفه فالمنهى عنه مطلوب اعدامه طلب الوسائل والذرائع والمأمور به مطلوب ايجاده طلب المقاصد والغايات :
وقول أبي هاشم ان تارك القبائح يحمد وان لم يخطر بباله كف النفس فان أراد

بحمده انه لا يذم فصحيح وان أراد انه يثني عليه بذلك ويحب عليه ويستحق الثواب فغير صحيح فان الناس لا يحمدون المجبوب على ترك الزنا ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب وانما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداع الي الفعل : وقول القاضي الابقاء علي العدم الأصلي مقدور فان أراد به كف النفس ومنعها فصحيح وان أراد مجرد العدم فليس كذلك وهذا يتبين ﴿بالوجه الثالث عشر﴾ وهو أن الأمر بالشيء نهي عن ضده من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي فان الأمر انما مقصوده فعل المأمور فاذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره وهذا هو الصواب في مسألة الأمر بالشيء هل هو نهي عن ضده أم لا فهو نهي عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب : وكذلك النهي عن الشيء مقصود الناهي بالقصد الأول الانتهاء عن المنهي عنه وكونه مشتغلا بضده جاء من جهة اللزوم العقلي لكن انما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم فكأن المأمور به هو المقصود بالقصد الاول في الموضعين *

وحرف المسألة ان طلب الشيء طلب له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم والنهي عن الشيء طلب لتركه بالذات ولفعل ما هو من ضرورة الترك باللزوم والمطلوب في الموضعين فعل وكف وكلاهما أمر وجودي ﴿الوجه الرابع عشر﴾ ان الأمر والنهي في باب الطلب نظير النفي والاثبات في باب الخبر والمدح والثناء لا يحصلان بالنفي المحض ان لم يتضمن ثبوتا فان النفي كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح فاذا تضمن ثبوتا صح المدح به كنفي النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه ونفي اللغوب والاعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة : ونفي السنة والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيومية : ونفي الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية : ونفي الشريك والولي والشفيع بدون الاذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرد بالكمال والآلهية والملك : ونفي الظلم المتضمن لكمال العدل : ونفي ادراك الابصار له المتضمن لعظمته وأنه أجل من أن يدرك وان رأته

الابصار والا فليس فى كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه فان العدم المحض كذلك *

واذا عرف هذا فالمنهى عنه ان لم يتضمن أمراً وجوديا ثبوتيًا لم يمدح بتركه ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العدمي ﴿ الوجه الخامس عشر ﴾ ان الله سبحانه جعل جزاء المأمورات عشرة أمثال فعلها وجزاء المنهيات مثل واحد وهذا يدل على أن فعل ما أمر به أحب اليه من ترك ما نهى عنه ولو كان الامر بالعكس لكانت السيئة بعشرة والحسنة بواحدة أو تساويا ﴿ الوجه السادس عشر ﴾ ان المنهى عنه المقصود اعدامه وأن لا يدخل فى الوجود سواء نوى ذلك أو لم ينوه وسواء خطر بباله أو لم يخطر فالمقصود أن لا يكون: وأما المأمور به فالمقصود كونه وايجاده والتقرب به نية وفعلا *

﴿وسر المسألة﴾ أن وجود ما طلب ايجاده أحب اليه من عدم ما طلب اعدامه وعدم ما أحبه أكره اليه من وجود ما يبغضه فمحبته لفعل ما أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه ﴿ يوضحه الوجه السابع عشر ﴾ ان فعل ما يحبه والاعانة عليه وجزاؤه وما يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته وفعل ما يكرهه وجزاؤه وما يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه ورحمته سابقة على غضبه غالبة له وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب فانه سبحانه لا يكون إلا رحيما ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك وليس كذلك غضبه فانه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائما غضبا لا يتصور انفكاكه بل يقول رسله وأعلم الخلق به يوم القيامة « إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وان يغضب بعده مثله » ورحمته وسعت كل شيء وغضبه لم يسع كل شيء وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب ووسع كل شيء رحمة وعلما ولم يسع كل شيء غضبا وانتقاما: فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الغضب

وما كان منه وآثاره فوجود ما كان بالرحمة أحب اليه من وجود ما كان من لوازم الغضب: ولهذا كانت الرحمة أحب اليه من العذاب والعفو أحب اليه من الانتقام فوجود محبوبه أحب اليهمن فوات مكروهه ولا سيما اذا كان فى فوات مكروهه فوات مايحبه من لوازمه فانه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه ﴿ الوجه الثامن عشر ﴾ ان آثار مايكرهه وهو المنهيات أسرع زوالا بما يحبه من زوال آثار مايحبه بما يكرهه فآثار كراهته سريعة الزوال وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المكفرة والشفاعة والحسنات يذهبن السيئات ولو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفرله ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لايشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة وهو سبحانه يغفر الذنوب وإن تعاظمت ولايبالى فيبطلها ويبطل آثارها بأدني سعى من العبد وتوبة نصوح وندم علي مافعل وماذاك الا لوجود مايحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده فدل علي أن وجود ذلك أحب اليه وأرضي له يوضحه﴿ الوجه التاسع عشر ﴾ وهوانه سبحانه قدر مايبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح بهمن المأمورات فانه سبحانه أفرح بتوبة عبدهمن الفاقدالواجد:والعقيم الوالد:والظمآن الوارد وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرحه بتوبة العبد مثلا ليس في المفروح به أبلغ منه وهذا الفرح إنما كان بفعل المأمور به وهوالتوبة فقدر الذنب لمايترتب عليه من هذا الفرح العظيم الذى وجوده أحب اليهمن فواتهووجوده بدون لازمه ممتنع فدل على أن وجود مايحب أحب اليه من فوات مايكرهوليس المرادبذلك أن كل فرد من أفراد مايحب أحب اليه من فوات كل فردمما يكره حتي تكون ركعتا الضحى أحب اليه من فوات قتل المسلم وانما المراد أن جنس فعل المأمورات افضل من جنس ترك المحظورات كما اذا فضل الذكر علي الانثى والانسي على الملك فالمراد الجنس لاعموم الأعيان ٭

والمقصود أن هذا الفرح الذى لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدل على أن هـذا المأمور أحب اليه من فوات المحظور الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها ﴿فان قيل﴾ انما فرح بالتوبة لأنها ترك للمنهى فكان الفرح بالترك: قيل ليس كذلك فان الترك المحض لا يوجب هـذا الفرح بل ولا الثواب ولا المدح وليست التوبة تركا وان كان الترك من لوازمها وانما هى فعل وجودى يتضمن اقبال التائب على ربه وإنابته اليه والتزام طاعته ومن لوازم ذلك ترك ما نهى عنه ولهذا قال تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) فالتوبة رجوع مما يكره الى ما يحب وليست مجرد الترك فان من ترك الذنب تركا مجردا ولم يرجع منه الى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائباً فالتوبة رجوع وإقبال وانابة لا ترك محض ﴿الوجه العشرون﴾ ان المأمور به اذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد وهى التى قال تعالى فيها (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) وقال (أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به فى الناس كمن مثله فى الظلمات) وقال فى حق الكفار (أموات غير أحياء) وقال (انك لا تسمع الموتي) وأما المنهى عنه فاذا وجد فغايته أن يوجد المرض وحياة مع السقم خير من موت ﴿فان قيل﴾ ومن المنهى عنه ما يوجب الهلاك وهو الشرك قيل الهلاك انما حصل بعدم التوحيد المأمور به الذى به الحياة فلما فقد حصل الهلاك فما هلاك الا من عدم اتيانه بالمأمور به وهـذا وجه ﴿حاد وعشرون﴾ فى المسألة وهو أن فى المأمورات ما يوجب فواته الهلاك والشقاء الدائم وليس فى المنهيات ما يقتضي ذلك ﴿الوجه الثانى والعشرون﴾ ان فعل المأمور يقتضي ترك المنهى عنه اذا فعل علي وجهه من الاخلاص والمتابعة والنصح لله فيه : قال تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) ومجرد ترك المنهى لا يقتضي فعل المأمور ولا يستلزمه ﴿الوجه الثالث والعشرون﴾ ان ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته وما يكرهه من المنهيات فمتعلق بمفعولاته وهذا وجه دقيق يحتاج الي بيان فنقول

المنهيات شرور وتفضي الي الشرور والمأمورات خير وتفضي الي الخيرات والخير بيديه سبحانه والشر ليس اليه فانّ الشر لا يدخل فى صفاته ولا في أفعاله ولا فى أسمائه وانما هو فى المفعولات مع أنه شر بالاضافة والنسبة الي العبد والا من حيث إضافته ونسبته الي الخالق سبحانه فليس بشر من هذه الجهة فغاية ارتكاب المنهى ان يوجب شرا بالاضافة الي العبد مع انه فى نفسه ليس بشر : وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذي بفواته يحصل ضده من الشر وكلما كان المأمور أحب الى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته أعظم كالتوحيد والايمان * وسر هذه الوجوه أن المأمور محبوبه والمنهى مكروهه ووقوع محبوبه أحب اليه من فوات مكروهه وفوات محبوبه أكره اليه من وقوع مكروهه والله أعلم *

فصل

مبنى الدين على قاعدتين الذكر والشكر : قال تعالي (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) وقال النبي ﷺ لمعاذ « والله اني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعنى علي ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبي واللساني وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه وذلك يستلزم معرفته والايمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح وذلك لا يتم الا بتوحيده: فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه الي خلقه*

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب اليه بأنواع محابه ظاهراً وباطناً وهذان الأمران هما جماع الدين فذكره مستلزم لمعرفته وشكره متضمن لطاعته وهذان هما الغاية التي خلق لاجلها الجن والانس والسموات والأرض ووضع لاجلها الثواب والعقاب وأنزل الكتب وأرسل الرسل وهى الحق الذي به خلقت

السموات والارض وما بينهما وضدها هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه وهو ظن أعدائه به: قال تعالي (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا) وقال (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقنا هما إلا بالحق) وقال (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وإنّ الساعة لآتية) وقال بعد ذكر آياته فى أول سورة يونس (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) وقال (أيحسب الانسان أن يترك سدى) وقال (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم الينا لا ترجعون) وقال (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) (الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله علي كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) وقال (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وان الله بكل شيء عليم) فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والامر أن يذكر وأن يشكر: يذكر فلا ينسي ويشكر فلا يكفر وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره شاكر لمن شكره فذكره سبب لذكره وشكره سبب لزيادته من فضله: فالذكر للقلب واللسان والشكر للقلب محبة وإنابة: وللسان ثناء وحمد: وللجوارح طاعة وخدمة *

فصل

تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والاضلال فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره: وكذلك الضلال فأعمال البر تثمر الهدى وكلما ازداد منها ازداد هدى: وأعمال الفجور بالضد وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء: وأيضا فانه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر

ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور : فمن الأصل الأول قوله تعالى (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) وهذا يتضمن أمرين * ﴿ أحدهما ﴾ أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب فان الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد فى الأرض ويمقت فاعل ذلك ويحب العدل والاحسان والجود والصدق والاصلاح فى الأرض ويحب فاعل ذلك فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بان وفقهم للايمان به جزاء لهم علي برهم وطاعتهم وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به ﴿ والأمر الثاني ﴾ أن العبد اذا آمن بالكتاب واهتدي به مجملا وقبل أوامره وصدق بأخباره كان ذلك سبباً لهداية أخري تحصل له علي التفصيل فان الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخري الى غير غاية فكلما اتقى العبد ربه ارتقى الي هداية أخري فهو فى مزيد هداية مادام في مزيد من التقوى وكلما فوت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه فكلما اتقى زاد هداه وكلما اهتدي زادت تقواه قال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) وقال تعالي (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب) وقال تعالي (سيذكر من يخشى) وقال (ومايتذكر إلا من ينيب) وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم) * فهداهم أولا للايمان فلما آمنوا هداهم للايمان هداية بعد هداية : ونظير هذا قوله (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقوله تعالى (يا أيها الذين أمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من اقامة الحق وكسر الباطل فسر الفرقان بهذا وبهذا : وقال تعالى (إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) وقال

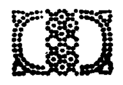
(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) فى سورة لقمان وسورة ابراهيم وسبأ والشوري : فاخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر كما أخبرعن آياته الايمانية القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوي والخشية والانابة ومن كان قصده اتباع رضوانه وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) وقال فى الساعة (إنما أنت منذرمن يخشاه) وأما من لايؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية ولهذا لما ذكر سبحانه فى سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم فى الدنيا من الخزي قال بعد ذلك (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) فأخبر أن فى عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة : وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية فى حقه واذا سمع ذلك قال لم يزل فى الدهر الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوة وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية وانما كان الصبر والشكر سببا لانتفاع صاحبهما بالآيات (١) ينبنى على الصبر والشكر فنصفه صبر ونصفه شكر فعلي حسب صبر العبد وشكره تكون قوة ايمانه وآيات الله انما ينتفع بها من آمن بالله وآياته ولا يتم له الايمان الا بالصبر والشكر فان رأس الشكر التوحيد ورأس الصبر ترك إجابة داعى الهوى فاذا كان مشركا متبعا هواه لم يكن صابرا ولا شكوراً فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه ايمانا *

فصل

وأما الأصل الثاني وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضا فى القرآن: كقوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ومايضل به الا

(١) هكذا الاصل ولعل فى الكلام سقطا تقديره : لان الايمان الخ وبه ينتظم الكلام

الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) وقال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال تعالي (فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا) وقال تعالي (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) وقال تعالي (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الايمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الايمان كما قال تعالي (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه) فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم الى ما فيه حياتهم ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذي يكون سببا لأن يحول بينهم وبين قلوبهم: قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين) وقال تعالي (كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينها وبين الايمان بآياته فقالوا أساطير الأولين : وقال تعالى فى المنافقين (نسوا الله فنسيهم) فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم فلم يذكرهم بالهدى والرحمة : وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له: وقال تعالى فى حقهم (أولئك الذين طبع الله علي قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) فجمع لهم بين اتباع الهوي والضلال الذى هو ثمرته وموجبه كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى *



فصل

وكما يقرن سبحانه بين الهدى والتقى والضلال والغيّ فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء : فمن الأول قوله (أولئك علي هدي من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) وقال عن المؤمنين (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنامن لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وقال أهل الكهف (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا) وقال (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال (وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدي ورحمة لقوم يؤمنون) وقال (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للعالمين) وقال (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ثم أعاد سبحانه ذكرهما فقال (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) *

وقد تنوعت عبارات السلف فى تفسير الفضل والرحمة والصحيح أنهما الهدى والنعمة ففضله هداه ورحمته نعمته ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله فى سورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم) * ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بايوائه واغنائه * ومن ذلك قول نوح (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده) وقول شعيب (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقنى منه رزقا حسنا) وقال عن الخضر (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) وقال لرسوله (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك

الله نصراً عزيزا) وقال (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقال (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) ففضله هدايته ورحمته أنعامه واحسانه اليهم وبره بهم: وقال(فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى) والهدي منعه من الضلال والرحمة منعه من الشقاء وهذا هو الذي ذكره فى أول السورة فى قوله (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فجمع له بين انزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه كما قال فى آخرها فى حق اتباعه (فلا يضل ولا يشقى) فالهدي والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض كما أن الضلال والشقاء متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر : قال تعالى (ان المجرمين فى ضلال وسعر) والسعر جمع سعير وهو العذاب الذي هو غاية الشقاء :وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقال تعالى عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) *

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك: قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) وقال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) وكذلك يجمع بين الهدى والانابة وبين الضلال وقسوة القلب قال تعالى (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) وقال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) *

فصل

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والانعام كله من صفة العطاء :والاضلال

والعذاب وتوابعهما من صفة المنع وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه وذلك كله صادر عن حكمة بالغة : وملك تام : وحمد تام فلا إله إلا الله ٭

فصل

إذا رأيت النفوس المبطلة الفارغة من الارادة والطلب لهذا الشأن قد تشبث بها هذا العالم السفلي وقد تشبثت به فكلها اليه فانه اللائق بها لفساد تركيبها ولا تنقش عليها ذلك فانه سريع الانحلال عنها ويبقى تشبثها به مع انقطاعه عنها عذابا عليها بحسب ذلك التعلق فتبقى شهوتها وارادتها فيها وقد حيل بينها وبين ماتشتهى على وجه يئست معه من حصول شهوتها ولذتها فلو تصور العاقل ما فى ذلك من الألم والحسرة لبادر الى قطع هذا التعلق كما يبادر الى حسم مواد الفساد ومع هذا فانه ينال نصيبه من ذلك وقلبه وهمه متعلق بالمطلب الأعلى والله المستعان ٭

فصل

إياك والكذب فانه يفسد عليك تصور المعلومات علي ما هى عليه ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس فان الكاذب يصور المعدوم موجوداً والموجود معدوما والحق باطلا والباطل حقاً والخير شراً والشر خيراً فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له ثم يصور ذلك فى نفس المخاطب المغتر به الراكن اليه فيفسد عليه تصوره وعلمه: ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة الي العدم مؤثرة للباطل واذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هى مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب اليها فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا باعماله : ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الكذب يهدي الي الفجور وإن الفجور يهدى الي النار » وأول ما يسرى الكذب من النفس الى اللسان فيفسده ثم يسرى الي الجوارح

فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه الى الهلكة ان لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها : ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب: فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق: وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب : قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وقال تعالي (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال (فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) وقال (وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) *

فصل

في قوله تعالي (وعسي أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسي أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

فى هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد فان العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب فان الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد أوجب له ذلك أمورا ﴿ منها ﴾ أنه لا انفع له من امتثال الأمر وان شق عليه فى الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وان كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع : وكذلك لا شيء أضر عليه من

ارتكاب النهى وان هويته نفسه ومالت اليـه وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب وخاصة العقل تحمل الألم اليسير لمـا يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبه من الألم العظيم والشر الطويل : فنظر الجاهل لايجاوز المبادىء الي غاياتها والعاقل الكيس دائما ينظر الى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ماوراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل فكلما دعتـه لذته الى تناوله نهاه ما فيـه من السم ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض الي العافية والشفاء وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول ولكن هذا يحتاج الى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية فاذا فقد اليقين و الصبر تعذر عليه ذلك وإذا قوى يقينـه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم واللذة الدائمة *

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض الي من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة ﴿ ومنها ﴾ أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليـه ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم فلا يختار على ربه شيئًا بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختـاره فلا أنفع له من ذلك ﴿ ومنها ﴾ أنه إذا فوض الى ربه ورضى بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات التي هى عرضة اختيار العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل الى بعضه بما يختاره هو لنفسه ﴿ ومنها ﴾ أنه يريحه من الأفكار المتعبة فى أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها فى عقبة وينزل في أخرى ومع هذا فلاخروج له عما قدر عليه فلو رضى باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه والا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه لأنه مع اختياره لنفسه ومتي صح تفويضه ورضاه اكتنفه فى

المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه فعطفه يقيه ما يحذره ولطفه يهون عليه ما قدره * إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله فى رده فلا أنفع له من الاستسلام والقاء نفسه بين يدى القدر طريحاً كالميتة فان السبع لا يرضى بأكل الجيف *

فصل

لاينتفع بنعمة الله بالايمان والعلم الامن عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزه الى ماليس له ولم يتعدطوره ولم يقل هذا لي وتيقن أنه لله ومن الله وبالله فهو المانّ به ابتداء وادامة بلاسبب من العبد ولا استحقاق منه فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لايري لنفسه ولا فيها خيرا ألبتة وان الخير الذى وصل اليه فهو لله وبه ومنه فتحدث له النعم ذلا وانكسارا عجيبا لايعبر عنه فكلما جدد له نعمة ازداد له ذلا وانكسارا وخشوعا ومحبة وخوفا ورجاء وهذا نتيجة علمين شريفين * علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته وأن الخير كله فى يديه وهو ملكه يؤتي منه من يشاء ويمنع منه من يشاء وله الحمد على هذا وهذا أكمل حمد وأتمه * وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها وأنها لاخير فيها ألبتة ولا لها ولا بها ولامنها وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها الا العدم الذي لاشيء أحقر منه ولا انقص فما فيها من الخير تابع لوجودها الذى ليس اليها ولا بها فاذا صار هذان العلمان صيغة لها لاصيغة (١) على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله والأمر كله له والخير كله فى يديه وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها وأنها هى أولي بالذم والعيب واللوم ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله

(١) كلاهما مكتوب بالياء المثناه التحتيــة والمعني صحيح وربما كان الانسب ان يكون الاول فقط بالباء الموحدة من تحت *

وأحواله وتخبطت عليه ولم يهتد الى الصراط المستقيم الموصل له الى الله: فايصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علما وحالا وانقطاعه بفواتهما وهذا معنى قولهم من عرف نفسه عرف ربه فانه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم عرف ربه بضد ذلك فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعد بها طورها وأثنى علي ربه ببعض ماهو أهله وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحده وكان أحب شيء اليه وأخوف شيء عنده وأرجاه له وهذا هو حقيقة العبودية والله المستعان *

ويحكى ان بعض الحكماء كتب علي باب بيته إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها فمن كان كذلك فليدخل وإلا فليرجع حتي يكون بهذه الصفة *

فصل

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ماتوجبه الشهوة فانها اما ان توجب ألما وعقوبة وإما أن تقطع لذة أكمل منها وإما ان تضيع وقتا إضاعته حسرة وندامة واما أن تثلم عرضا توفيره أنفع للعبد من ثلمه واما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه وإما أن تضع قدرا وجاها قيامه خير من وضعه: واما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة واما أن تطرق لوضيع اليك طريقا لم يكن يجدها قبل ذلك: واما ان تجلب هما وغما وحزنا وخوفا لا يقارب لذة الشهوة: وإما أن تنسى علما ذكره ألذ من نيل الشهوة: واما أن تشمت عدوا وتحزن وليا: واما أن تقطع الطريق علي نعمة مقبلة: واما ان تحدث عيبا يبقى صفة لا تزول فان الاعمال تورث الصفات والأخلاق *

فصل

للاخلاق حد متي جاوزته صارت عدوانا ومتي قصرت عنه كان نقصا ومهانة

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والانفة من الرذائل والنقائص وهذا كماله: فاذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار وان نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل: وللحرص حد وهو الكفاية فى امور الدنيا وحصول البلاغ منها فمتى نقص من ذلك كان مهانة واضاعة ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه: وللحسد حد وهو المنافسة فى طلب الكمال والانفة أن يتقدم عليه نظيره فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على ايذائه ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس * قال النبي ﷺ « لاحسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لاحسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود * وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك فمتى زادت علي ذلك صارت نهمة وشبقا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغا فى طلب الكمال والفضل كانت ضعفا وعجزا ومهانة وللراحة حد وهو اجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها علي ذلك بحيث لايضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها فمتى زاد علي ذلك صار توانيا وكسلا واضاعة وفات به أكثر مصالح العبد ومتى نقص عنه صار مضرا بالقوى موهنا لها وربما انقطع به كالمنبت الذى لاارضا قطع ولا ظهرا أبقى : والجود له حد بين طرفين فمتى جاوز حده صار اسرافا وتبذيرا ومتى نقص عنه كان بخلا وتقتيرا : وللشجاعة حد متي جاوزته صارت تهورا ومتي نقصت عنه صارت جبنا وخوراً وحدها الاقدام في مواضع الاقدام والاحجام فى مواضع الاحجام كما قال معاوية لعمرو بن العاص أعياني أن أعرف أشجاعا أنت أم جبانا تقدم حتي أقول من أشجع الناس وتجبن حتي أقول من أجبن الناس فقال :

شجاع إذا ما امكنتنى فرصة * فان لم تـكن لي فرصة فجبان

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبرىء وإن قصرت عنه كانت تغافلا ومبادىء دياثة : وللتواضع حدإذا جاوزه كان ذلا ومهانة ومن قصرعنه انحرف إلى الـكبر والفخر : وللعزحداذا جاوزه كان كبراً وخلقا مذموما وإن قصر عنه انحرف الي الذل والمهانة *

وضابط هذا كله العدل وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفى الافراط والتفريط وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة بل لاتقوم مصلحة البدن إلا به فانه متي خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أونقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك : وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغيرذلك اذا كانت وسطا بين الطرفين المذمومين كانت عدلا وإن انحرفت إلي أحدهما كانت نقصا وأثمرت نقصا : فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهى : فاعلم الناس اعلمهم بتلك الحدود حتي لايدخل فيها ماليس منها ولايخرج منها ماهو داخل فيها: قال تعالي (الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) فأعدل الناس من قام بحدود الاخلاق والاعمال والمشروعات معرفة وفعلا : و بالله التوفيق *

فصل

قال أبوالدرداء رضي الله عنه ياحبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم والذرة من صاحب تقوي أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين * وهذا من جواهر الكلام وأدله علي كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم فى كل خير رضى الله عنهم *

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير الى الله بقلبه وهمته لا ببدنه : والتقوى فى الحقيقة تقوى القلوب لاتقوى الجوارح :قال تعالي (ذلك ومن يعظم شعائر الله

فانها من تقوى القلوب) وقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وقال النبي ﷺ « التقوى ههنا واشار الى صدره » فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل اضعاف اضعاف مايقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق فان العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير : والتقدم والسبق الى الله سبحانه انما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل فان ساواه في همته تقدم عليه بعمله وهذا موضع يحتاج الى تفصيل يوافق فيه الاسلام الاحسان ٭

فاكمل الهدى هدي رسول الله ﷺ وكان موفيا كل واحد منها حقه فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى ترم قدماه ويصوم حتي يقال لايفطر ويجاهد فى سبيل الله ويخالط أصحابه ولايحتجب عنهم : ولايترك شيئا من النوافل والاوراد لتلك الواردات التى تعجز عن حملها قوى البشر والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الاسلام على ظواهرهم وحقائق الايمان على بواطنهم ولا يقبل واحدا منها الا بصاحبه وقرينه ٭ وفى المسند مرفوعاً « الاسلام علانية والايمان فى القلب » فكل اسلام ظاهر لاينفذ صاحبه منه الى حقيقة الايمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الايمان الباطن وكل حقيقة باطنة لايقوم صاحبها بشرائع الاسلام الظاهرة لاتنفع ولو كانت ما كانت فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار كما أنه لو قام بظواهر الاسلام وليس فى باطنه حقيقة الايمان لم ينجه ذلك من النار :

وإذا عرف هذا فالصادقون السائرون الى الله والدار الآخرة قسمان ﴿قسم﴾ صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض الى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها وان لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة الى الاستكثار من الأعمال : ﴿وقسم﴾ صرفوا

ما فضل من الفرائض والسنن الى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والارادات معه وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والانابة ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحب اليهم من كثير من التطوعات البدنية فاذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس أو حب أو اشتياق أو انكسار وذل لم يستبدل به شيئاً سواه البتة الا أن يجيء الأمر فيبادر اليه بذلك الوارد إن أمكنه والا بادر الى الامر ولو ذهب الوارد فاذا جاءت النوافل فهنا معترك التردد فان أمكن القيام اليها به فذاك والا نظر فى الأرجح والاحب الى الله هل هو القيام الى تلك النافلة ولو ذهب وارده كاغاثة الملهوف وارشاد ضال وجبر مكسور واستفادة إيمان ونحو ذلك فهنا ينبغى تقديم النافلة الراجحة ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربا إليه فانه يرد عليه مافات من وارده أقوى مما كان فى وقت آخر وإن كان الوارد أرجح من النافلة فالحزم له الاستمرار فى وارده حتى يتوارى عنه فانه يفوت والنافلة لاتفوت : وهذا موضع يحتاج الى فضل فقه في الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الاهم منها فالأهم والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه *

فصل

أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة : وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والاعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة: وأن يحمد بما لم يفعل: وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر : وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذى هو

أدني بالذى هو خير ونحو ذلك فانها من المهانة والدناءة وصغر النفس * وأما الاخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والايثار وعزة النفس عن الدناآت والتواضع والقناعة والصدق والاخلاق والمكافأة على الاحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بمالا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها فكذلك المخلوق منها اذا أصابه حظه من التوفيق : وأما النار فطبعها العلو والافساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذله : وكذلك المخلوق منها فهى دائما بين العلو اذا هاجت واضطربت وبين الخسة والدناءة اذا خمدت وسكنت: والاخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها والاخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل *

فصل

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة فمن فقدهما تعذر عليه الوصول اليه فان الهمة اذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره واذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة اليه فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب: فاذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة اليه كان الوصول غايته : واذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلي واذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة اليه : فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولا يتم له الا بترك ثلاثة أشياء : العوائد: والرسوم والاوضاع التى أحدثها الناس ﴿الثاني﴾ (١) هجر العوائق التي تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه

(١) الثاني هو مقابل للأول المأخوذ من المقام المشار اليه بقوله العوائد والرسوم والاوضاع :

وقطعها : الثالث قطع علائق القلب التى تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب والفرق بينهما أن العوائق هى الحوادث الخارجية والعلائق هى التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها: وأصل ذلك ترك الفضول التى تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ويرفض منه ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه والله المستعان *

فصل

من كلام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قال(١) رجل عنده ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين أحب أن أكون من المقربين فقال عبد الله لكن هنا رجل ود أنه اذا مات لم يبعث يعنى نفسه * وخرج ذات يوم فاتبعه ناس فقال لهم ألكم حاجة قالوا لا ولكن أردنا أن نمشي معك قال ارجعوا فانه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع * وقال لو تعلمون منى ما أعلم من نفسي لحثوتم على رأسي التراب * وقال حبذا المكروهان الموت والفقر وأيم الله إن هو إلا الغنى والفقر وما أبالى بأيهما بليت أرجو الله فى كل واحد منهما إن كان الغنى ان فيه للعطف وان كان الفقر ان فيه للصبر * وقال انكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة فمن زرع خيراً فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطىء بحظه ولا يدرك حريص مالم يقدر له من أعطى خيراً فالله أعطاه ومن وقي شراً فالله وقاه المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة أنما هما اثنتان الهدي والكلام فافضل الكلام كلام الله وأفضل الهدي هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة فلا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل فان كل ما هو آت قريب الاوان البعيد ماليس آتيا الاوان الشقى من شقى فى بطن امه وان السعيد من وعظ

(١) قال فاعله رجل وليس ضميرا يعود علي ابن مسعود وقوله ما أحب الخ مقول القول

بغيره الاوان قتال المسلم كفر وسبابه فسوق ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام حتي يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه ويعوده اذا مرض الاوان شر الروايا روايا الكذب الاوان الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد الرجل صبيه شيئاً ثم لا ينجزه الاوان الكذب يهدي الي الفجور والفجور يهدي الى النار والصدق يهدى الى البر والبر يهدي الى الجنة وانه يقال للصادق صدق وبر ويقال للكاذب كذب وفجر وان محمداً ﷺ حدثنا أن الرجل ليصدق حتي يكتب عند الله صديقا ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا إن أصدق الحديث كتاب الله وأوثق العرى كلمة التقي وخير الملة ملة ابراهيم وأحسن السنن سنة محمد ﷺ وخير الهدي هدي الانبياء وأشرف الحديث ذكر الله وخير القصص القرآن وخير الأمور عواقبها وشر الأمور محدثاتها وما قل وكفى خير مما كثر وألهي ونفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها وشر المعذرة حين يحضر الموت وشر الندامة ندامة يوم القيامة وشر الضلالة الضلالة بعد الهدي وخير الغنى غني النفس وخير الزاد التقوي وخير ما ألقي في القلب اليقين والريب من الكفر وشر العمى عمى القلب والخمر جماع الأثم والنساء حبائل الشيطان والشباب شعبة من الجنون: والنوح من عمل الجاهلية: ومن الناس من لا يأتي الجمعة الا دبرا (١) ولا يذكر الله الا هجراً: وأعظم الخطايا الكذب ومن يعف يعف الله عنه: ومن يكظم الغيظ يأجره الله: ومن يغفر يغفر الله له: ومن يصبر على الرزية يعقبه الله (٢) وشر المكاسب كسب الربا: وشر المآكل مال اليتيم وأنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه وانما يصير الي أربعة أذرع والأمر الى آخره: وملاك العمل خواتمه: وأشرف الموت قتل الشهداء: ومن يستكبر يضعه الله ومن يعص الله يطع الشيطان: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله اذا الناس نائمون وبنهاره اذا الناس مفطرون وبحزنه اذا الناس يفرحون وبكائه اذا الناس

---

(١) معني دبرا انه يأتي الصلاة حين يدبر وقتها (٢) يجعل الله العاقبة له

يضحكون وبصمته اذا الناس يخوضون: وبخشوعه اذا الناس يختالون وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا حكيما حليما سكيناً: ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيا ولا غافلا ولا سخابا ولا صياحا ولا حديدا من تطاول تعظما حطه الله ومن تواضع تخشعاً رفعه الله: وان للملك لمة وللشيطان لمة فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالحق فاذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالحق فاذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله ان الناس قد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فذاك انما يوبخ نفسه لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب نهار إني لابغض الرجل أن أراه فارغا ليس في شيء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة ومن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله الا بعداً: من اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله ولا تحمد أحداً على رزق الله ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتك الله فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره وان الله بقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط: مادمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك ومن يقرع باب الملك يفتح له: اني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في السماء وتخفون على أهل الارض * إن للقلوب شهوة وإدباراً فاغتنموها عند شهوتها واقبالها ودعوها عند فترتها وادبارها * ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية: أنكم ترون الكافر من أصح الناس جسما وأمرضه قلباً وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضه جسماً وأيم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون علي الله من الجعلان * لا يبلغ العبد حقيقة الايمان حتي يحل بذروته ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب اليه من الغنى والتواضع أحب اليه من الشرف وحتي يكون حامده وذامه عنده سواء وان الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء يأتي الرجل (١) ولا

---

(١) يأتي الرجل فعل ومفعول والفاعل يعود علي الرجل المذكور قبله: وقوله ذيت وذيت يعني كيت وكيت كناية عن عبارات المدح تملقا؛

يملك له ولا لنفسه ضرا ولا نفعا فيقسم له بالله أنك لذيت وذيت فيرجع وماحلي من حاجته بشيء ويسخط الله عليه * لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً * الاثم حواز (١) القلوب * ما كان من نظرة فان للشيطان فيها مطمعاً مع كل فرحة ترحة وما ملىء بيت حبرة (٢) الاملىء عبرة * ومامنكم الاضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة الى أهلها * يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأنتان (٣) * اذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى اليه * الحق ثقيل مريء والباطل خفيف وبيء * رب شهوة تورث حزنا طويلا * ماعلى وجه الأرض شيء أحوج الي طول سجن من لسان * اذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن بهلاكها * من استطاع منكم أن يجعل كنزه فى السماء حيث لا يأكله السوس ولا يناله السراق فليفعل فان قلب الرجل مع كنزه * لا يقلدن أحدكم دينه رجلا فان آمن آمن وإن كفر كفر وإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة * لا يكن أحدكم إمعة قالوا وما الامعة قال يقول أنا مع الناس ان اهتدوا اهتديت وان ضلوا ضللت ألا ليوطن أحدكم نفسه على أنه ان كفر الناس لا يكفر * وقال له رجل علمنى كلمات جوامع نوافع فقال اعبد الله لا تشرك به شيئاً وزل مع القرآن حيث زال ومن جاءك بالحق فاقبل منه وان كان بعيداً بغيضاً ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وان كان حبيباً قريباً يؤتي بالعبد يوم القيامة فيقال له أدّ أمانتك فيقول يارب من أين وقد ذهبت الدنيا فتمثل على هيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها حتى اذا ظن أنه خارج بها هوت وهوي فى أثرها أبد الآبدين * اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن عند سماع القرآن وفى مجالس الذكر: وفى أوقات الخلوة فان لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن

---

(١) فيه ثلاث روايات حواز كشداد وحواز كدواب وحزاز كخراز والمشهور بتشديد الزاى والمعني أنه يجمع القلوب ويغلب عليها : (٢) الحبرة النعمة وسعة العيش
(٣) الانتان جمع نتن من كان به رائحة كريهة

يمن عليك بقلب فانه لا قلب لك * قال الجنيد دخلت على شاب فسألنى عن التوبة فأجبته فسألني عن حقيقتها فقلت أن تنصب ذنبك بين عينيك حتي يأتيك الموت فقال لى مه ما هذا حقيقة التوبة فقلت له فما حقيقة التوبة عندك يا فتى قال أن تنسي ذنبك وتركني ومضي فكيف هو عندك يا أبا القاسم فقلت القول ما قال الفتى قل كيف قلت اذا كنت معه فى حال ثم نقلنى من حال الجفا الى حال الوفا فذكري للجفا فى حال الوفا جفا *

فصل

لا يجتمع الاخلاص فى القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس الا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت فاذا حدثتك نفسك بطلب الاخلاص فاقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا فى الآخرة فاذا استقام لك ذبح الطمع والزهد فى الثناء والمدح سهل عليك الاخلاص ﴿ فان قلت ﴾ وما الذى يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح : قلت أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه الا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتي العبد منها شيئا سواه . وأما الزهد فى الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين الا الله وحده كما قال ذلك الاعرابي للنبى ﷺ ان مدحى زين وذمي شين فقال ذلك الله عز وجل: فازهد فى مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه وارغب فى مدح من كل الزين فى مدحه وكل الشين فى ذمه ولن يقدر على ذلك الا بالصبر واليقين فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر فى غير مركب : قال تعالي (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) وقال تعالي (وجعلنا منهم آئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) *

فصل

لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه : فأشرف الناس نفسا وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذته فى معرفة الله ومحبته والشوق الى لقائه والتودد اليه بما يحبه ويرضاه فلذته فى اقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها الا الله حتى تنتهى الى من لذته فى أخس الأشياء من القاذورات والفواحش فى كل شيء من الكلام والفعال والاشغال: فلو عرض عليه ما يلتذ به الاول لم تسمح نفسه بقبوله ولا الالتفات اليه وربما تألمت من ذلك كما أن الاول اذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت اليه ونفرت نفسه منه * وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه: فهذا ممن قال تعالى فيه (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات وافترقوا فى وجه التمتع فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم اليه الهوى والشهوة وسواء أذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلا له الى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله وارادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى وان كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في

لذة الآخرة ويجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همه لما هناك وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يدندن وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة: فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لاينقص حظه من الآخره ظفر بهما جميعاً والاخسرهما جميعاً * سبحان الله رب العالمين لولم(١) يكن فى ترك الذنوب والمعاصي الا اقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذى جعله الله قواما لمصالح الدنيا والآخرة ومحبة الخلق وجواز القول بينهم وصلاح المعاش وراحة البدن وقوة القلب: وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر: والأمن من مخاوف الفساق والفجار: وقلة الهم والغم والحزن وعز النفس عن احتمال الذل: وصون نور القلب ان تطفئه ظلمة المعصية وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار: وتيسير الرزق عليه من حيث لايحتسب: وتيسير ماعسر على أرباب الفسوق والمعاصي: وتسهيل الطاعات عليه وتيسير العلم والثناء الحسن فى الناس وكثرة الدعاء له والحلاوة التي يكتسبها وجهه والمهابة التي تلقى له فى قلوب الناس: وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظلم وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب وسرعة اجابة دعائه وزوال الوحشة التي بينه وبين الله وقرب الملائكة منه وبعد شياطين الانس والجن منه: وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه: وخطبتهم لمودته وصحبته: وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدومه علي ربه ولقائه له ومصيره اليه: وصغر الدنيا فى قلبه وكبر الآخرة عنده وحرصه علي الملك الكبير والفوز العظيم فيها: وذوق حلاوة الطاعة ووجد حلاوة الايمان ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له وفرح الكاتبين به ودعائهم له كل وقت والزيادة فى عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته وهكذا يجازيه بفرح وسرور لانسبة له إلي فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه *

---

(١) جواب لو لم يذكره المصنف لظهوره

فهذه بعض آثار ترك المعاصي في الدنيا فاذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة وبأنه لاخوف عليه ولا حزن وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها الى يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة كان الناس فى الحر والعرق وهو فى ظل العرش فاذا انصرفوا من بين يدى الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

فصل

ذكر ابن سعد فى الطبقات عن عمر بن عبد العزيز انه كان اذا خطب على المنبر فخاف علي نفسه العجب قطعه واذا كتب كتابا فخاف فيه العجب مزقه ويقول اللهم اني أعوذ بك من شر نفسي : اعلم أن العبد اذا شرع في قول أو عمل يبتغى به مرضاة الله مطالعا فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وانه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته بل هو بالذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن : فالذى منّ عليه بذلك هو الذى منّ عليه بالقول والفعل فاذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذى أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه واعانته فاذا غاب عن تلك الملاحظة وثبت النفس وقامت فى مقام الدعوى فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل فتارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة وإن أثمر أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وإن القول والفعل به *

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس فاذا أراد الله

بعبده خيراً أشهده منته وتوفيقه وإعانته له فى كل مايقوله ويفعله فلا يعجب به ثم أشهده تقصيره فيه وانه لا يرضي لربه به فيتوب اليه منه ويستغفره ويستحي ان يطلب عليه أجراً وإذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأي نفسه فى العمل ورآه بعين الكمال والرضا لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهدا فيه منته وفضله وتوفيقه معتذرا منه اليه مستحييا منه إذ لم يوفه حقه والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظرا فيه الي نفسه يمن به علي ربه راضيا بعمله فهذا لون وذاك لون آخر *

فصل

الوصول الي المطلوب موقوف علي هجر العوائد وقطع العوائق : فالعوائد السكون الى الدعة والراحة وماألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع بل هى عندهم أعظم من الشرع فانهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها مالا ينكرون على من خالف صريح الشرع وربما كفروه أو بدعوه وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادا للرسول يوالون عليها ويعادون: فالمعروف عندهم ماوافقها والمنكر ماخالفها *

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة : فربي فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتخذت سننا بل هى أعظم عند أصحابها من السنن: الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع عم بها المصاب : وهجر لاجلها السنة والكتاب : من استنصر بها فهو عند الله مخذول : ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول : وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ الى الله ورسوله *

فصل

واما العوائق فهى أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها فانها تعوق القلب عن سيره الي الله وتقطع عليه طريقه وهى ثلاثة أمور : شرك : وبدعة : ومعصية فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد وعائق البدعة بتحقيق السنة: وعائق المعصية بتصحيح التوبة وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتي يأخذ فى أهبة السفر ويتحقق بالسير الي الله والدار الآخرة فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر والا فما دام قاعدا لا يظهر له كوامنها وقواطعها *

فصل

وأما العلائق فهى كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها وصحبة الناس والتعلق بهم ولا سبيل له الى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلي والا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع فان النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها الا لمحبوب هو أحب اليها منه وآثر عندها منه وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره وكذا بالعكس والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ماسواه *

فصل

لما كمل الرسول صلى الله عليه وسلم مقام الافتقار الى الله سبحانه أحوج الخلائق كلهم اليه فى الدنيا والآخرة : أما حاجتهم اليه فى الدنيا فأشد من حاجتهم الي الطعام والشراب والنفس الذي به حياة ابدانهم : وأما حاجتهم اليه فى الآخرة فانهم يستشفعون بالرسل الى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم: فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع لهم وهو الذى يستفتح لهم باب الجنة *

فصل

من علامات السعادة والفلاح ان العبد كلما زيد فى علمه زيد فى تواضعه ورحمته : وكلما زيد فى عمله زيد فى خوفه وحذره : وكلما زيد فى عمره نقص من حرصه : وكلما زيد فى ماله زيد فى سخائه وبذله : وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم *

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد فى كبره وتيهه وكلما زيد فى عمله زيد فى فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه: وكلما زيد في عمره زيد فى حرصه: وكلما زيد فى ماله زيد فى بخله وإمساكه: وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى كبره وتيهه: وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلى بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام: وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء كالملك والسلطان والمال قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور كما أن المحن بلوى منه سبحانه فهو يبتلي بالنعم كما يبتلى بالمصائب: قال تعالى (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا) أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكراما منى له ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له *

فصل

من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به فان علو البنيان على قدر توثيق الأساس واحكامه فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الايمان ومتى كان الاساس وثيقا حمل البنيان واعتلي عليه واذا تهدم شيء من

البنيان سهل تداركه واذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت واذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد: فالعارف همته تصحيح الاساس واحكامه والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط: قال تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) فالاساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الانسان فاذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات واذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات اليه أسرع شيء *

فاحمل بنيانك على قوة أساس الايمان فاذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس: وهذا الاساس امران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته: والثاني تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلي البناء ما شاء فأحكم الاساس واحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ اذا زاد بك الخلط والقصد القصد وقد بلغت المراد والا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوماً

فاقر السلام على الحياة فانها * قد آذنتك بسرعة التوديع

فاذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والاحسان الى الناس ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة ثم ارخ الستور على أبوابه ثم اقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشي عاقبته ثم ركب له مفتاحا من ذكر الله به تفتحه وتغلقه فان فتحت فتحت بالمفتاح وان أغلقت الباب أغلقته به فتكون حينئذ قد بنيت حصنا تحصنت فيه من أعدائك اذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلا فييأس منك: ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت فان العدو اذا لم يطمع في الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب فان أهملت أمره وصل اليك النقب فاذا العدو معك في داخل الحصن فيصعب عليك اخراجه وتكون معه على

ثلاث خـلال إما أن يغلبك على الحصن ويستولى عليه واما أن يسا كنك فيه واما أن يشـغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك وتعود الى سد النقب ولمّ شعث الحصن واذا دخل نقبه اليك نالك منه ثلاث آفات: افساد الحصن : والاغارة على حواصله وذخائره : ودلالة السراق من بني جنسه على عورته فلا يزال يبلي منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواه ويوهنوا عزمه فيتخلي عن الحصن ويخلي بينهم وبينه *

وهذه حال أكثر النفوس مع هـذا العدو ولهذا تراهم يسـخطون ربهم برضا أنفسهم بل برضا مخلوق مثلهم لايملك لهم ضرا ولا نفعا ويضيعون كسب الدين بكسب الاموال ويهلـكون أنفسهم بما لا يبقى لهم ويحرصون على الدنيـا وقـد أدبرت عنهم ويزهدون فى الآخرة وقد هجمت عليهم ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم ويتكلون على الحيـاة ولا يذ كرون الموت ويذكرون شهواتهم وحظوظهم: وينسون ماعهد الله اليهم ويهتمون بماضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة ومافيها ولا يفرحون بالايمان فرحهم بالدرهم والدينار: ويفسدون حقهم بباطلهم وهداهم بضلالهم ومعروفهم بمنكرهم: ويلبسون إيمانهم بظنونهم: ويخلطون حلالهم بحرامهم ويترددون فى حيرة آرائهم وأفكارهم : ويتركون هدى الله الذى أهداه اليهم : ومن العجب أن هـذا العدو يستعمل صاحب الحصن فى هدم حصنه بيديه *

فصل

أركان الـكفر أربعة: الـكبر : والحسد: والغضب: والشهوة فالـكبر يمنعه الانقياد والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها : والغضب يمنعه العدل: والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة فاذا انهدم ركن الـكبر سهل عليه الانقياد واذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله: واذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع واذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة : وزوال الجبال عن أماكنها

أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها ولا سيما اذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة فانه لايستقيم له معها عمل ألبتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها وكلما اجتهد فى العمل أفسدته عليه هذه الأربعة وكل الآفات متولدة منها واذا استحكمت فى القلب أرته الباطل في صورة الحق والحق فى صورة الباطل والمعروف فى صورة المنكر: والمنكر فى صورة المعروف: وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة: واذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئا منها وعليها يقع العذاب: وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها فمن فتحها علي نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلا وآجلا ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور فانها تمنع الانقياد والاخلاص والتوبة والانابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه *

﴿ومنشأ هذه الاربعة﴾ من جهله بربه وجهله بنفسه فانه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً علي ما آتاه الله فان الحسد فى الحقيقة نوع من معاداة الله فانه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك فهو مضاد لله فى قضائه وقدره ومحبته وكراهته ولذلك كان ابليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عن كبر وحسد: فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والانابة اليه: وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لاتستحق أن يغضب لها وينتقم لها فان ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها: وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضي له فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها وكذا بالعكس *

﴿وأما الشهوة﴾ فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن اعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها وحميتها أعظم أسباب اتصالها اليها فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعياً فى حرمانها اياها وكلما اغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعيا فى ايصالها اليها على أكمل الوجوه *

﴿فالغضب مثل السبع﴾ اذا أفلته صاحبه بدأ بأكله: والشهوة مثل النار اذا أضرمها صاحبها بدأت باحراقه: والكبر بمنزلة منازعة الملك ملكه فان لم يهلكك طردك عنه: والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك : والذي يغلب شهوته وغضبه يفرق الشيطان من ظله ومن تغلبه شهوته وغضبه يفرق من خياله *

فصل

(عظيم النفع)

الجهال بالله واسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يبغضون الله الي خلقه ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد اليه بطاعته من حيث لا يعلمون : ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذي عليها : ﴿فمنها﴾ أنهم يقررون فى نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة وان طال زمانها وبالغ العبد وأتي بها بظاهره وباطنه وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقى من المحراب الي الماخور ومن التوحيد والمسبحة الي الشرك والمزمار: ويقلب قلبه من الايمان الخالص الى الكفر ويروون فى ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها وباطلة لم يقلها المعصوم ويزعمون ان هذا حقيقة التوحيد ويتلون على ذلك قوله تعالى (لا يسأل عما يفعل) وقوله (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقوله (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) ويقيمون ابليس حجة لهم علي هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة وأنه لم يترك فى السماء رقعة ولا فى الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة لكن جني عليه جاني القدر وسطا عليه الحكم فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم انك ينبغى أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته اليه * ويحتجون بقول النبي ﷺ « ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » ويروون عن بعض السلف أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة

وذكر الامام احمد عن عون بن عبد الله أوغيره انه سمع رجلا يدعو اللهم لا تؤمني مكرك فانكر ذلك وقال قل اللهم لا تجعلني ممن يأمن مكرك : وبنوا هذا على أصلهم الباطل وهو انكار الحكمة والتعليل والأسباب وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب وإنما يفعل بمشيئة مجردة من الحكمة والتعليل والسبب. فلا يفعل لشيء ولا بشيء وأنه يجوز عليه ان يعذب أهل طاعته أشد العذاب وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب وأن الأمرين بالنسبة إليه سواء، ولا يعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لا يفعله فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون لا لأنه في نفسه باطل وظلم فان الظلم في نفسه مستحيل فانه غير ممكن بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد والجمع بين الليل والنهار في ساعة واحدة وجعل الشيء موجودا ومعدوما معا في آن واحد فهذا حقيقة الظلم عندهم فاذا رجع العامل الى نفسه قال من لا يستقر له امر ولا يؤمن له مكر كيف يوثق بالتقرب اليه وكيف يعول على طاعته واتباع أوامره وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة فاذا هجرنا فيها اللذات وتركنا الشهوات وتكلفنا أثقال العبادات وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب علينا الايمان كفرا والتوحيد شركا والطاعة معصية والبر فجورا ويديم علينا العقوبات كنا خاسرين في الدنيا والآخرة فاذا استحكم هذا الاعتقاد في قلوبهم وتخمر في نفوسهم صاروا إذا أمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده معلمك ان كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه ربما أقام لك حجة وعاقبك وان كسلت وبطلت وتعطلت وتركت ماامرك به ربما قربك وأكرمك فيودع بهذا القول قلب الصبي مالا يثق بعده الى وعيد المعلم على الاساءة ولا وعده على الاحسان وان كبر الصبي وصلح للمعاملات والمناصب قال له هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيرا أميرا ويأخذ الكيس المحسن لشغله فيخلده الحبس ويقتله ويصلبه فاذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده وأزال محبته من قلبه وجعله يخافه مخافة الظالم الذي يأخذ المحسن بالعقوبة

والبرىء بالعذاب فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أوضارة فلا بفعل الخير يستأنس ولا بفعل الشر يستوحش وهل في التنفير عن الله وتبغيضه الى عباده أكثر من هذا ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا : وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر ويرد على أهل البدع وينصر الدين ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررا من الصديق الجاهل : وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولاسيما القرآن فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس اليه لصلح العالم صلاحا لا فساد معه فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفى أنه انما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسن لديه ظلما ولا هضما ولا يخاف بخسا ولا رهقا ولا يضيع عمل محسن أبداً ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما وان كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه وانه يجزى بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها الي سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وهو الذى أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين وتاب علي المذنبين وهدى الضالين وأنقذ الهالكين وعلم الجاهلين وبصر المتحيرين وذكر الغافلين وآوى الشاردين: وإذا أوقع عقاباً أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ودعوة العبد الي الرجوع اليه والاقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة حتى إذا أيس من استجابته والاقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه وانه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى عن أهل النار (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لاصحاب السعير) وقال عمن أهلكهم في الدنيا انهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه قالوا (يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها

قالوا (سبحان ربنا انا كنا ظالمين) قال الحسن لقد دخلوا النار وان حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا: ولهذا قال تعالى (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) فهذه الجملة فى موضع الحال أى قطع دابرهم حال كونه سبحانه محموداً علي ذلك فقطع دابرهم قطعاً مصاحبا لحمده فهو قطع واهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة فى موضعها الذى لا يليق به غيرها فوضعها فى الموضع الذى يقول من علم الحال لا تليق العقوبة الا بهذا المحل ولا يليق به الا العقوبة ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة الى الجنة وأهل الشقاء الي النار (وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) : فحذف فاعل القول إشعارا بالعموم وأن الكون كله قال الحمد لله رب العالمين لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله ولهذا قال فى حق أهل النار (قيل ادخلوا أبواب جهنم) كأن الكون كله يقول ذلك حتي تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة : ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره ولم يقل اني أغرقه بمحض مشيئتي وارادتي بلا سبب ولا ذنب: وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين فى سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم: وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه ورده فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه وأنه سبحانه لو علم فى تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته: وقد ازاح سبحانه العلل وأقام الحجج ومكن من أسباب الهداية وأنه لا يضل الا الفاسقين والظالمين ولا يطبع

الا علي قلوب المعتدين ولا يركس فى الفتنة الا المنافقين بكسبهم وأن الرين الذى غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وقال عن أعدائه من اليهود (وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) وأخبر أنه لا يضل من هداه حتي يبين له ما يتقى فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغيّ علي الرشاد ويكون مع نفسه وشيطانه وعدوربه عليه *

وأما المكر الذى وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله فيقابل مكرهم السيء بمكره الحسن فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شي. لأنه عدل ومجازاة : وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر : وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتي ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فان هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس ولو كان عملا صالحاً مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه : وقوله لم يبق بينه وبينها الا ذراع يشكل على هذا التأويل فيقال لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتي يتم له بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها فى آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع الي موجبها وعملت عملها ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله ايمانه لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض *

﴿وأما شأن ابليس﴾ فان الله سبحانه قال للملائكة (إني أعلم ما لا تعلمون) فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب ابليس من الكفر والكبر والحسد مالا يعلمه الملائكة فلما أمروا بالسجود ظهر ما فى قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا الي الامتثال وظهر ما فى قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبي واستكبر وكان من الكافرين *

وأما خوف أوليائه من مكره فحق فانهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون الي الشقاء فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته : وقوله (أفأمنوا مكر الله) انما هو فى حق الفجار والكفار : ومعنى الآية فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له علي مكر السيئات بمكره به الا القوم الخاسرون والذى يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة : وأمر آخر وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره فيتخلي عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته فيسرع اليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخليه عنهم : وأمر آخر أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون : وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه فيفتنون به وذلك مكر *

فصل

السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها : فمن كانت أنفاسه فى طاعة فثمرة شجرته طيبة :ومن كانت فى معصية فثمرته حنظل :وانما يكون الجداد يوم المعاد فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها والاخلاص: والتوحيد شجرة فى القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة فثمرة التوحيد والإخلاص فى الدنيا كذلك *والشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب ثمرها فى الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب وثمرها في الآخرة الزقوم والعذاب المقيم وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة ابراهيم *

فصل

إذا بلغ العبد أعطى عهده الذى عهده اليه خالقه ومالكه فاذا أخذ عهده بقوة وقبول

وعزم على تنفيذ ما فيه صلح المراتب والمناصب التى يصلح لها الموفون بعهودهم فاذا هز نفسه عند أخذ العهد وانتحاها وقال قد أهلت لعهد ربي فمن أولي بقبوله وفهمه وتنفيذه مني فحرص أولا على فهم عهده وتدبره وتعرفه وصايا سيده له ثم وطن نفسه على امتثال ما فى عهده والعمل به وتنفيذه حسبما تضمنه عهده فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه فاستحدث همة أخرى وعزيمة غير العزيمة التى كان فيها وقت الصبا قبل وصول العهد فاستقال من ظلمة غرة الصبا والانقياد للعادة والمنشأ وصبر على شرف الهمة وهتك ستر الظلمة الى نور اليقين فادرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله : فاول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية وقلب يعقل ما تعيه الأذن فاذا سمع وعقل واستبانت له الجادة ورأى عليها تلك الأعلام ورأي أكثر الناس منحرفين عنها يمينا وشمالا فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد أو قبلوه بكره ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ولا حدثوا أنفسهم بفهمه وتدبره والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه بل عرض عليهم العهد ومعهم ضراوة الصبا ودين العادة وما ألفوا عليه الآباء والأمهات فتلقوا العهد تلقى من هو مكتف بما وجد عليه آباءه وسلفه وعادتهم لا تلقي من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به حتي كأن ذلك العهد أتاه وحده وقيل له تأمل مافيه ثم اعمل بموجبه فاذا لم يتلق عهده هذا التلقي اخلد الى سيرة القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده فان علت همته أخلد الي ماعليه سلفه ومن تقدمه من غير التفات الى تدبر العهد وفهمه فرضى لنفسه أن يكون دينه دين العادة فاذا شامه الشيطان ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه وزين له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل ومثل له الهدى فى صورة الضلال والضلال فى صورة الهدى بتلك العصبية والحمية التي أسست على غير علم فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه له مالهم وعليه ما عليهم فخذل عن الهدى وولاه الله ما تولي فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره

الا ضلالة واذا كانت همته أعلي من ذلك ونفسه أشرف وقدره أعلي أقبل على حفظ عهده وفهمه وتدبره وعلم أن لصاحب العهد شأنا ليس كشأن غيره فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد فوجده قد تعرف اليه وعرفه نفسه وصفاته واسماءه وأفعاله وأحكامه فعرف من ذلك العهد قيوما بنفسه مقيما لغيره غنيا عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير اليه مستو على عرشه فوق جميع خلقه يرى ويسمع ويرضي ويغضب ويحب ويبغض ويدبر أمر مملكته وهو فوق عرشه متكلم آمر ناه يرسل رسله الي أقطار مملكته بكلامه الذى يسمعه من يشاء من خلقه وأنه قائم بالقسط مجاز بالاحسان والاساءة وأنه حليم غفور شكور جواد محسن موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب ونقص وأنه لا مثل له ويشهد حكمته فى تدبير مملكته وكيف يقدر مقاديره بمشيئته غير مضادة لعدله وحكمته وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة فصدق كل منهما صاحبيه وفهم عن الله سبحانه ما وصف به نفسه فى كتابه من حقائق أسمائه التى بها نزل الكتاب وبها نطق ولها أثبت وحقق وبها تعرف الى عباده حتى أقرت به العقول وشهدت به الفطر فاذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد أشرقت أنوارها على قلبه فصارت له كالمعاينة فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر وارتباطهما بها وسريان آثارها فى العالم الحسي والعالم الروحى ورأي تصرفها فى الخلائق كيف عمت وخصت وقربت وأبعدت وأعطت ومنعت فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسطه وفضله ورحمته واجتمع له الايمان بلزوم حجته مع نفوذ أقضيته وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته ونهاية علوه على جميع خلقه مع احاطته ومعيته وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبره ولطفه وجوده وعفوه وحلمه ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التى لا خروج لمخلوق عنها وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض وانعطاف الحكمة التي هى نهاية وغاية على المقادير التى هى أول وبداية ورجوع فروعها الى أصولها ومبادئها الي

غاياتها حتي كأنه مشاهد مبادىء الحكمة وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والاحسان لا تخرج قضية عن ذلك الى انقضاء الاكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد وظهور عدله وحكمته وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة إنسها وجنها مؤمنها وكافرها وحينئذ يتبين من صفات جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك حتي أن أعرف خلقه به فى الدنيا يثنى عليه يومئذ من صفات كماله ونعوت جلاله ما لم يكن يحسنه فى الدنيا وكما يظهر ذلك لخلقه تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضل الضالون وانقطع المنقطعون فيكون الفرق بين العلم يومئذ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها فى الدنيا كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتهما وأعظم من ذلك وكذلك يفهم من العهد كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وأن لا يترك خلقه سدى وكيف اقتضت ماتضمنته من الأوامر والنواهى وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته بحيث ينزه عما زعم أعداؤه من إنكار ذلك ويرى شمول القدرة وإحاطتها بجميع الكائنات حتى لا يشذ عنها مثقال ذرة ويرى أنه لو كان معه اله آخر لفسد هذا العالم فكانت تفسد السموات والارض ومن فيهن وأنه سبحانه لوجاز عليه النوم أو الموت لتدكدك هذا العالم بأسره ولم يثبت طرفة عين ويري مع ذلك الاسلام والايمان اللذين تعبد الله بهما جميع عباده كيف انبعاثهما من الصفات المقدسة وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلا وآجلا ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته وانكر علوه علي خلقه وتكلمه بكتبه وعهوده كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وارادته وقدرته وأن هؤلاء هم الذين ردوا عهده وأبوا قبوله وان من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه وبالله التوفيق *

فصل

خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما فاذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه فى الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت الي الموضع الذى خلقت منه واشتاقت الى عالمها العلوي وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته أخلد البدن الي الموضع الذى خلق منه فانجذبت الروح معه فصارت فى السجن فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه كما يستغيث المعذب*

وبالجملة فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوى وكلما ثقل وأخلد الى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية فترى الرجل روحه فى الرفيق الأعلى وبدنه عندك فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش وآخر واقف فى الخدمة ببدنه وروحه فى السفل تجول حول السفليات فاذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدني فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة وعند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك: قال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا) فذكره كلامه الذي أنزله على رسوله: والاعراض عنه ترك تدبره والعمل به: والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء فى التفسير أنها عذاب القبر قاله ابن مسعود وأبوهريرة وأبو سعيد الخدرى وابن عباس: وفيه حديث مرفوع: وأصل الضنك فى اللغة الضيق والشدة وكل ماضاق فهو ضنك يقال منزل ضنك وعيش ضنك فهذه المعيشة الضنك فى مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة فان النفس كلما وسعت عليها ضيقت علي القلب حتي تصير معيشة ضنكا وكلما ضيقت عليها وسعت علي القلب حتى ينشرح وينفسح فضنك المعيشة في

الدنيا بموجب التقوى سعتها فى البرزخ والآخرة وسعة المعيشة فى الدنيا بحكم الهوى ضنكها فى البرزخ والآخرة فآثر أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما واشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن فان نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم: ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون والله المستعان *

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فانهم لا يقدرون علي تركها ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع اقامتهم على دنياهم فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة فان صعب عليهم ترك الذنوب فاجتهد أن تحبب الله اليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله فان القلوب مفطورة على محبته فاذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والاصرار عليها: وقدقال يحيي بن معاذ طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها * العارف يدعو الناس الى الله من دنياهم فتسهل عليهم الاجابة والزاهد يدعوهم الي الله بترك الدنيا فتشق عليهم الاجابة فان الفطام عن الثدى الذى ما عقل الانسان نفسه إلا وهو يرتضع منه شديد ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن فان للبن تأثيرا فى طبيعة المرتضع ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد: وانفع الرضاعة ما كان من المجاعة فان قويت علي مرارة الفطام والا فارتضع بقدر فان من البشم ما يقتل *

فصل

بين رعاية الحقوق مع الضر ورعايتها مع العافية بون بعيد * ان عبدى كل عبدى الذي يذكرني وهو ملاق قرنه (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) * ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال وتختلف عليه الأحوال وقلبه واقف فى الخدمة غير متخلف بما يقدر عليه *

فصل

معرفة الله سبحانه نوعان: معرفةاقرار وهى التى اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصي: والثاني معرفةتوجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق الى لقائه وخشيته والانابة اليه والأنس به والفرار من الخلق اليه: وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية علي لسان القوم وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذى عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ماأخفاه عن سواهم وكل أشار الى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها: وقد قال اعرف الخلق به « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن *

ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكر والتأمل فى آيات القرآن كلها والفهم الخاص عن الله ورسوله * والباب الثانى التفكر فى آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط علي خلقه: وجماع ذلك الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر فيكون فقيها فى أوامره ونواهيه: فقيها فى قضائه وقدره: فقيها في اسمائه وصفاته: فقيها في الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم *

فصل

الدراهم اربعة: درهم اكتسب بطاعة الله وأخرج فى حق الله فذاك خير الدراهم: ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج فى معصية الله فذاك شر الدراهم: ودرهم اكتسب باذي مسلم وأخرج فى اذى مسلم فهو كذلك: ودرهم اكتسب بمباح وانفق فى شهوة مباحة فذاك لا له ولا عليه هذه أصول الدراهم ويتفرع

عليها دراهم أخر : منها درهم اكتسب بحق وأنفق فى باطل : ودرهم اكتسب بباطل وأنفق فى حق فانفاقه كفارته : ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق فى طاعة: وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم باخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه: وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما أنفقه *

فصل

المواساة للمؤمنين أنواع : مواساة بالمال ومواساة بالجاه : ومواساة بالبدن والخدمة: ومواساة بالنصيحة والارشاد: ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم : ومواساة بالتوجع لهم وعلى قدر الايمان تكون هذه المواساة فكلما ضعف الايمان ضعفت المواساة وكلما قوي قويت: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مواساة لأصحابه بذلك كله فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له * ودخلوا علي بشر الحافى فى يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض فقالوا ما هذا يا أبا نصر فقال ذكرت الفقراء وبردهم وليس لى ما أواسيهم به فاحببت أن أواسيهم فى بردهم *

فصل

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة فان صاحبه إما أن يجتهد فى نافلة مع إضاعة الفرض أوفى عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب أوعمل بالباطن والظاهر لم يتقيد بالاقتداء أو همة الي عمل لم ترق بصاحبها إلى ملاحظة المقصود أوعمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده أو عمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه أو عمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده فى مقام الاعتذار منه أو عمل لم يوفه حقه من النصح والاحسان وهو يظن أنه وفاه فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب والله الموفق *

فصل

اذا عزم العبد على السفر الى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس فان وقف معها انقطع وإن رفضها ولم يقف معها وصدق فى طلبه ابتلي بوطء عقبه وتقبيل يده والتوسعة له فى المجلس والاشارة اليه بالدعاء ورجاء بركته ونحو ذلك فان وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه وإن قطعه ولم يقف معه ابتلى بالكرامات والكشوفات فان وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه وإن لم يقف معها ابتلى بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا فان وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود وإن لم يقف معه وسار ناظراً لى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت تعب بها أو استراح تنعم أو تألم أخرجته الى الناس أو عزلته عنهم لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده واقف مع أمره ينفذه بحسب الامكان ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره: فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة وبالله التوفيق *

فصل

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد: ونعمة منتظرة يرجوها: ونعمة هو فيها لا يشعر بها فاذا أراد الله إتمام نعمته على عبد عرّفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد فانها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصّره بالطرق التى تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها واذا بها قد وافت اليه على أتم الوجود وعرّفه النعم التى

هو فيها ولا يشعر بها ﴿ويحكي﴾ أن أعرابياً دخل علي الرشيد فقال أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بادامة شكرها وحقق لك النعم التى ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته وعرفك النعم التى أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها ﴿ فأعجبه ذلك منه وقال ما أحسن تقسيمه ﴿

قاعدة جليلة

مبدأ كل علم نظري وعمل اختيارى هو الخواطر والافكار فأنها توجب التصورات والتصورات تدعو الى الارادات والارادات تقتضي وقوع الفعل وكثرة تكراره تعطى العادة فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والافكار وفسادها بفسادها فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها والهها صاعدة اليه دائرة على مرضاته ومحابه فانه سبحانه به كل صلاح : ومن عنده كل هدى : ومن توفيقه كل رشد : ومن توليه لعبده كل حفظ : ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر اثبات عين فكرته فى آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وإنزاله إياه حاضراً معه مشاهدا له ناظراً اليه رقيباً عليه مطلعا على خواطره وإراداته وهمه : فحينئذ يستحيي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله أو يرى فى نفسه خاطراً يمقته عليه ﴿

فمتى أنزل ربه هذه المنزلة منه رفعه وقربه منه وأكرمه واجتباه ووالاه وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناآت والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة كما أنه كلما بعد منه وأعرض عنه قرب من الأوساخ والدناآت والأقذار ويقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص فالانسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه وعمل بمرضاته وآثره على هواه :

وشر المخلوقات اذا تباعدعنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته فمتي اختار التقرب اليه وآثره على نفسه وهواه فقد حكم قلبه وعقله وايمانه على نفسه وشيطانه وحكم رشده على غيه وهداه علي هواه: ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده *

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدى متعلقاتها الى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها الي التذكر فيأخذها الذكر فيؤديها الي الارادة فتأخذها الارادة فتؤديها الي الجوارح والعمل فتستحكم فتصير عادة فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها ومعلوم أنه لم يعط الانسان اماتة الخواطر ولا القوة على قطعها فانها تهجم عليه هجوم النفس إلا أن قوة الايمان والعقل تعينه علي قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له وعلي رفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه كما قال الصحابة «يا رسول الله إن أحدنا يجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة (١) أحب اليه من أن يتكلم به فقال أو قد وجدتموه قالوا نعم قال ذاك صريح الايمان» وفى لفظ «الحمد لله الذى رد كيده الى الوسوسة» وفيه قولان أحدهما أن رده وكراهته صريح الايمان: والثاني أن وجوده والقاء الشيطان له فى النفس صريح الايمان فانه انما القاه فى النفس طلبا لمعارضة الايمان وإزالته به وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحا الدائرة التى لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه فان وضع فيها حب طحنته وإن وضع فيها تراب أو حصا طحنته: فالأفكار والخواطر التى تجول فى النفس هى بمنزلة الحب الذى يوضع فى الرحا ولا تبقى تلك الرحا معطلة قط بل لا بد لها من شيء يوضع فيها فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره وأكثرهم يطحن رملا وحصا وتبنا ونحو ذلك فاذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه *

---

(١) الحممة الفحمة وجمعها حمم :

فصل

فاذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك مابعده وإن قبلته صار فكراً جوالاً فاستخدم الارادة فتساعدت هى والفكر على استخدام الجوارح فان تعذر استخدامها رجعا الى القلب بالمني والشهوة وتوجهه الي جهة المراد : ومن المعلوم أن اصلاح الخواطر أسهل من اصلاح الأفكار واصلاح الافكار اسهل من إصلاح الارادات وإصلاح الارادات أسهل من تدارك فساد العمل وتداركه أسهل من قطع العوائد فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك فالفكر فيما لايعني باب كل شر ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بمالا منفعة له فيه فالفكر والخواطر والارادة والهمة أحق شيء باصلاحه من نفسك فان هذه خاصتك وحقيقتك التى تبتعد بها أو تقرب من الهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا فى قربه ورضاه عنك وكل الشقاء فى بعدك عنه وسخطه عليك ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيساً لم يكن فى سائر أمره إلا كذلك وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك فانه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه ويلقى اليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك وأنت الذى أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك فمثالك معه مثال صاحب رحا يطحن فيها جيد الحبوب فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه فى طاحونته فان طرده ولم يمكنه من القاء ما معه فى الطاحون استمر على طحن ما ينفعه وان مكنه في القاء ذلك فى الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسدا والذي يلقيه الشيطان فى النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل فى الوجود لو كان على خلاف ذلك وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون أوفيما يملك الفكر فيه من أنواع

الفواحش والحرام أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها وإما فى باطل أو فيما لا سبيل الى إدراكه من أنواع ما طوى عنه علمه فيلقيه فى تلك الخواطر التى لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها علي نهاية فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه *

﴿وجماع اصلاح ذلك﴾ أن تشغل فكرك فى باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه وفى الموت وما بعده الى دخول الجنة والنار وفى آفات الأعمال وطرق التحرز منها وفى باب الارادات والعزوم أن تشغل نفسك بارادة ما ينفعك ارادته وطرح ارادة مايضرك ارادته: وعند العارفين أن تمني الخيانة واشغال الفكر والقلب بها أضر علي القلب من نفس الخيانة ولا سيما اذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها فان تمنيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده: وأنت تجد فى الشاهد ان الملك من البشر اذا كان فى بعض حاشيته وخدمه من هو متمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلىء منها وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله فاذا اطلع علي سره وقصده مقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه وكان أبغض اليه من رجل بعيد عنه جني بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطو علي تمنى الخيانة ومحبتها والحرص عليها فالاول يتركها عجزا واشتغالا بماهو فيه وقلبه ممتلىء بها والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه اضمار الخيانة ولا الاصرار عليها فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول *

﴿وبالجملة﴾ فالقلب لايخلو قط من الفكر أما فى واجب آخرته ومصالحها واما فى مصالح دنياه ومعاشه وإما فى الوساوس والاماني الباطلة والمقدرات المفروضة وقد تقدم أن النفس مثلها كمثل رحا تدور بما يلقى فيها فان القيت فيها حبا دارت به وان القيت فيها زجاجا وحصا وبعراً دارت به والله سبحانه هو قيم تلك الرحا ومالكها ومصرفها وقد أقام لها ملكا يلقى فيها ماينفعها فتدور به وشيطانا يلقى فيها مايضرها فتدور به فالملك يلم بها مرة والشيطان يلم بها مرة فالحب الذي يلقيه

الملك ايعاد بالخير وتصديق بالوعد والحب الذى يلقيه الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالوعد: والطحين علي قدر الحب وصاحب الحب المضر لايتمكن من القائه الا اذا وجد الرحى فارغة من الحب النافع وقيمها قد أهملها واعرض عنها فحينئذ يبادر الي القاء مامعه فيها *

وبالجملة فقيم الرحا اذا تخلى عنها وعن إصلاحها والقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل إلي إفسادها وإدارتها بما معه وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك وفسادها كله فى الاشتغال بما لايعنيك وما أحسن ماقال بعض العقلاء لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضا للمتألف ورأيت الزوال حاكما عليها مدركا لها انصرفت عن جميعها الي مالاينازع فيه ذو الحجا أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر والله المستعان *

قال شقيق بن ابراهيم اغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء اشتغالهم بالنعمة عن شكرها : ورغبتهم فى العلم وتركهم العمل : والمسارعة الى الذنب وتأخير التوبة والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بأعمالهم : وادبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها واقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها (قلت) وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة وأصله ضعف اليقين وأصله ضعف البصيرة وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذى هو أدني بالذي هو خير والا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون : فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته وشرف النفس ونبلها وكبرها : وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها قال تعالي (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) أي أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي الله: فالنفوس الشريفة لا ترضي من الأشياء الا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار : فالنفس الشريفة العلية لا ترضي بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لانها أكبر من ذلك وأجل والنفس المهينة

الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك فكل نفس تميل الى ما يناسبها ويشا كلها وهذا معنى قوله تعالي (قل كل يعمل علي شا كلته) أي على ما يشا كله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التى تناسب أخلاقه وطبيعته وكل انسان يجرى على طريقته ومذهبه وعادته التي الفها وجبل عليها : فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والاعراض عن النعم: والمؤمن يعمل بما يشا كله من شكر النعم ومحبته والثناء عليه والتودد اليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله *

فصل

من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه :فاعلم أن الله تعالى خلق فى صدرك بيتا وهو القلب ووضع فى صدره عرشا لمعرفته يستوى عليه المثل الأعلى فهو مستو علي عرشه بذاته بائن من خلقه: والمثل الأعلي من معرفته ومحبته وتوحيده مستو علي سرير القلب وعلى السرير بساط من الرضا ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره وفتح اليه بابا من جنة رحمته والأنس به والشوق الى لقائه وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس وجعل فى وسط البستان شجرة معرفة فهى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها من المحبة والانابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه وأجرى الى تلك الشجرة ما يسقيها من تدبر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه وعلق في ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته والايمان به وتوحيده فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ثم أحاط عليه حائطا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذي البستان فلا يلحقه اذاهم وأقام عليه حرسا من الملائكة يحفظونه فى يقظته ومنامه ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه فهو دائما همه إصلاح السكن ولم شعثه ليرضاء الساكن منزلا وإذا أحس بأدني شعث فى السكن

بادر الي إصلاحه ولمه خشية انتقال الساكن منه فنعم الساكن ونعم المسكن فسبحان الله رب العالمين كم بين هذا البيت وبيت قد استولى عليه الخراب وصار مأوي للحشرات والهوام ومحلا لالقاء الأنتان والقاذورات فيه فمن أراد التخلى وقضاء الحاجة وجد خربة لا ساكن فيها ولا حافظ لها وهى معدة لقضاء الحاجة مظلمة الأرجاء منتنة الرائحة قد عمها الخراب وملأتها القاذورات فلا يأنس بها ولا ينزل فيها إلا من يناسبه سكناها من الحشرات والديدان والهوام: الشيطان جالس علي سريرها وعلى السرير بساط من الجهل وتخفق فيه الأهواء وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات وقد فتح اليه باب من حقل الخذلان والوحشة والركون الي الدنيا والطمأنينة بها والزهد فى الآخرة وأمطر من وابل الجهل والهوي والشرك والبدع ما أنبت فيه أصناف الشوك والحنظل والأشجار المثمرة بأنواع المعاصي والمخالفات من الزوائد والتنديبات والنوادر والهزليات والمضحكات والأشعار الغزليات والخمريات التي تهيج علي ارتكاب المحرمات وتزهد في الطاعات وجعل فى وسط الحقل شجرة الجهل به والاعراض عنه فهى تؤتي أكلها كل حين من الفسوق والمعاصي واللهو واللعب والمجون والذهاب مع كل ريح واتباع كل شهوة: ومن ثمرها الهموم والغموم والأحزان والآلام ولكنها متوارية باشتغال النفس بلهوها ولعبها فاذا أفاقت من سكرها أحضرت كل هم وغم وحزن وقلق ومعيشة ضنك وأجري الي تلك الشجرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور ثم ترك ذلك البيت وظلماته وخراب حيطانه بحيث لا يمنع منه مفسد ولا حيوان ولا مؤذ ولا قذر فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت فمن عرف بيته وقدر الساكن فيه وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات انتفع بحياته ونفسه ومن جهل ذلك جهل نفسه وأضاع سعادته وبالله التوفيق *

سئل سهل التسترى الرجل يأكل فى اليوم أكلة: قال أكل الصديقين قيل له فأكلتين قال أكل المؤمنين قيل له فثلاث أكلات فقال قل لأهله يبنوا

له معلقا * قال الأسود بن سالم ركعتين أصليهما لله أحب الى من الجنة بما فيها فقيل له هـذا خطأ فقال دعونا من كلامكم الجنة رضى نفسى والركعتان رضى ربي ورضى ربي أحب الىّ من رضي نفسى * العارف فى الارض ريحانة من رياحين الجنة إذا شمها المريد اشتاقت نفسه الى الجنة * قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله فاذا لاحظ جلاله هابه وعظمه واذا لاحظ جماله أحبه واشتاق اليه *

فائدة

من الناس من يعرف الله بالجود والافضال والاحسان : ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز : ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام : ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة : ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء :ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف : ومنهم من يعرفه بالقهر والملك : ومنهم من يعرفه باجابة دعوته واغاثة لهفته وقضاء حاجته * وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فانه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال منزه عن المثال برىء من النقائص والعيوب له كل اسم حسن وكل وصف كمال: فعال لما يريد فوق كل شيء ومع كل شيء : وقادر على كل شيء :ومقيم لكل شيء آمر ناه متكلم بكلماته الدينية والكونية أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين: فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل اليه وبحال السالكين بعد الوصول اليه *

فائدة

من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد فى نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له فيملها العبد ويطلب الانتقال منها الي مايزعم لجهله أنه خير له منها وربه برحمته لايخرجه من تلك النعمة ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه حتي اذا ضاق ذرعا

بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحكم ملكه لها سلبه الله إياها فاذا انتقل إلى ماطلبه ورأي التفاوت بين ما كان فيه وما صار اليه اشتد قلقه وندمه وطلب العودة الى ما كان فيه فاذا أراد الله بعبده خيرا ورشدا أشهده ان ماهو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه فاذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها مفوض إلى الله طالب منه حسن اختياره له وليس علي العبد أضر من ملله لنعم الله فانه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة: هذا وهى من أعظم نعم الله عليه فاكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلا وظلما: فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع فى ردها بجهده وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله قال تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم) وقال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم) فليس للنعم أعدى من نفس العبد فهو مع عدوه ظهير على نفسه فعدوه يطرح النار فى نعمه وهو ينفخ فيها فهو الذى مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ فاذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار *

وعاجز الرأى مضياع لفرصته * حتي اذا فات أمر عاتب القدرا

فصل

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال وهى معرفة خواص الخلق وكلهم عرفه بصفة من صفاته وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه ليس كمثله شيء فى سائر صفاته ولو فرضت الخلق كلهم على اجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة ونسبت جمالهم الظاهر والباطن الى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف الى قرص الشمس ويكفي فى جماله أنه لو كشف الحجاب

عن وجهه لاحرقت سبحانه ماانتهى اليه بصره من خلقه :ويكفى فى جماله أن كل جمال ظاهر وباطن فى الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال :ويكفي فى جماله أنه له العزة جميعا والقوة جميعاً والجود كله والاحسان كله والعلم كله والفضل كله : ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي ﷺ فى دعاء الطائف « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » وقال عبد الله بن مسعود ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والارض من نور وجهه فهو سبحانه نور السموات والأرض ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره : ومن أسمائه الحسنى الجميل: وفي الصحيح عنه ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال » *

وجماله سبحانه علي أربع مراتب جمال الذات : وجمال الصفات : وجمال الأفعال : وجمال الأسماء :فأسماؤه كلها حسني وصفاته كلها صفات كمال وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة . وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره وليس عند المخلوقين منه الا تعريفات تعرف بها الي من أكرمه من عباده فان ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والازار كما قال رسوله ﷺ فيما يحكي عنه « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري » ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء فانه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العلي العظيم : قال ابن عباس حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال *

ومن هذا المعني يفهم بعض معاني جمال ذاته فان العبد يترقى من معرفة الأفعال الى معرفة الصفات ومن معرفة الصفات الى معرفة الذات فاذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات: ومن ههنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله وأن أحداً من خلقه لايحصي ثناء

عليه بل هو كما أثني على نفسه وأنه يستحق أن يعبد لذاته ويحب لذاته ويشكر لذاته وأنه سبحانه يحب نفسه ويثني على نفسه ويحمد نفسه وأن محبته انفسه وحمده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو فى الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى به عليه خلقه وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله فكل أفعاله حسن محبوب وإن كان في مفعولاته مايبغضه ويكرهه فليس فى أفعاله ماهومكروه مسخوط وليس فى الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو سبحانه وكل ما يحب سواه فان كانت محبته نابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة والا فهى محبة باطلة وهذا هو حقيقة الالهية فان الاله الحق هو الذى يحب لذاته ويحمد لذاته فكيف اذا انضاف الى ذلك إحسانه وإنعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته فعلي العبد أن يعلم أنه لا إله الا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله : وأن يعلم انه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو فيحبه لاحسانه وانعامه ويحمده علي ذلك فيحبه من الوجهين جميعا وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة والمحبة مع الخضوع هى العبودية التى خلق الخلق لاجلها فانها غاية الحب بغاية الذل ولا يصلح ذلك الا له سبحانه والاشراك به فى هذا هو الشرك الذى لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملا *

وحمده يتضمن أصلين : الاخبار بمحامده وصفات كماله والمحبة له عليها فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً ومن أحبه من غير إخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه ويحمد نفسه بما يجريه على ألسنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا فان حمدهم له بمشيئته وإذنه وتكوينه فانه هو الذى جعل الحامد حامداً والمسلم مسلما والمصلى مصليا والتائب تائبا فمنه ابتدأت النعم واليه انتهت فابتدأت بحمده وانتهت الى حمده وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح

بها أعظم فرح وهى من فضله وجوده: وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها وهى من فضله وجوده وهو سبحانه غنى عن كل ما سواه بكل وجه وما سواه فقير اليه بكل وجه والعبد مفتقر اليه لذاته فى الأسباب والغايات فان مالا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا ينفع *

فصل

﴿وقوله فى الحديث﴾ « ان الله جميل يحب الجمال » يتناول جمال الثياب المسؤول عنه فى نفس الحديث ويدخل فيه بطريق العموم الجمال من كل شيء كما فى الحديث الآخر « إن الله نظيف يحب النظافة » وفى الصحيح « إن الله طيب لا يقبل الا طيباً » وفي السنن « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وفيها عن أبي الأحوص الجشمى قال « رآني النبي صلى الله عليه وسلم وعليّ أطمار فقال هل لك من مال قلت نعم قال من أى المال قلت من كل ما آتي الله من الابل والشاء قال فلتر نعمته وكرامته عليك » فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده فانه من الجمال الذى يحبه وذلك من شكره على نعمه وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسا وزينة تجمل ظواهرهم وتقوى تجمل بواطنهم (فقال يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير) وقال فى أهل الجنة (ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيأة يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيأة فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله ولكن ضل فى هذا الموضوع فريقان : فريق قالوا كل ما خلقه جميل فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع

ما خلقه فلا نبغض منه شيئا قالوا ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة وأنشد منشدهم :

واذا رأيت الكائنات بعينهم ٭ فجميع ما يحوي الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالي (الذى أحسن كل شيء خلقه) وقوله (صنع الله الذى أتقن كل شيء) وقوله (ما تري فى خلق الرحمن من تفاوت) والعارف عندهم هو الذى يصرح باطلاق الجمال ولا يرى فى الوجود قبيحا : وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض فى الله والمعاداة فيه وانكار المنكر والجهاد فى سبيله واقامة حدوده ويرى جمال الصور من الذكور والاناث من الجمال الذي يحبه الله فيتعبدون بفسقهم وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر فى تلك الصورة ويحل فيها وان كان اتحاديا قال هى مظهر من مظاهر الحق ويسميها المظاهر الجمالية ٭

فصل

﴿ وقابلهم الفريق الثاني ﴾ فقالوا قد ذم الله سبحانه جمال الصور وتمام القامة والخلقة فقال عن المنافقين (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم) وقال (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى أموالا ومناظر : قال الحسن هو الصور : وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم « ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما ينظر الي قلوبكم وأعمالكم » قالوا ومعلوم أنه لم ينف نظر الادراك وانما نفى نظر المحبة قالوا وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة وذلك من أعظم جمال الدنيا : وقال (ولا تمدن عينيك الي ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) وفى الحديث « البذاذة من الايمان » وقد ذم الله المسرفين: والسرف كما يكون فى الطعام والشراب يكون فى اللباس ٭

﴿ وفصل النزاع ﴾ أن يقال الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع : منه ما يحمد : ومنه ما يذم : ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم : فالمحمود منه ما كان

لله وأعان علي طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير فى الحرب والخيلاء فيه فان ذلك محمود اذا تضمن اعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه : والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل الي الشهوات وأن يكون هو غاية العبد وأقصي مطلبه فان كثيراً من النفوس ليس لها همة فى سوي ذلك : وأما مالا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين *

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين : فأوله معرفة وآخره سلوك فيعرف الله سبحانه بالجمال الذى لا يماثله فيه شيء ويعبد بالجمال الذى يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالاخلاص والمحبة والانابة والتوكل وجوارحه بالطاعة وبدنه باظهار نعمه عليه فى لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار فيعرفه بصفات الجمال ويتعرّف اليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه ويعبده بالجمال الذى هو شرعه ودينه فجمع الحديث قاعدتين المعرفة والسلوك *

فصل

ليس للعبد شيء انفع من صدقه ربه فى جميع أموره مع صدق العزيمة فيصدقه فى عزمه وفى فعله : قال تعالى (فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) فسعادته فى صدق العزيمة وصدق الفعل فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم: فاذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الارادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور ومن صدق الله فى جميع اموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره

وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الاخلاص وصدق التوكل فاصدق الناس من صح اخلاصه وتوكله *

فائدة جليلة فى القدر

رب ذو إرادة أمر عبداً ذا إرادة فان وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فعل ما أمر به وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه وهو من هذه الحيثية لا يختار الا ما تهواه نفسه وطبعه فهو من حيث هو انسان لا يريد إلا ذلك ولذلك ذمه الله فى كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية وهو كونه مسلماً ومؤمنا وصابراً ومحسنا وشكوراً وتقيا وبراً ونحو ذلك وهذا أمر زائد علي مجرد كونه انسانا : وارادته صالحة ولكن لا يكفى مجرد صلاحيتها ان لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق كما انه لا يكفى فى الرؤية مجرد صلاحية العين للادراك ان لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها *

فصل

من اعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره فانك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها قال تعالى (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى لا تعاملونه معاملة من توقرونه والتوقير العظمة : ومنه قوله تعالى (وتوقروه) قال الحسن مالكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرونه : وقال مجاهد لا تبالون عظمة ربكم وقال ابن زيد لا ترون لله طاعة : وقال ابن عباس لا تعرفون حق عظمته وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوه وأطاعوه وشكروه : فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره

فى القلب : ولهذاقال بعض السلف ليعظم وقار الله فى قلب أحدكم أن يذكره عند ما يستحى من ذكره فيقرن اسمه به كما تقول قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك فهذا من وقار الله ومن وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه لا فى اللفظ بحيث تقول والله وحياتك مالى إلا الله وأنت وما شاء الله وشئت ولا فى الحب والتعظيم والاجلال ولا فى الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ولا فى الخوف والرجاء ويجعله أهون الناظرين اليه ولا يستهين بحقه ويقول هو مبنى على المسامحة ولا يجعله على الفضلة ويقدم حق المخلوق عليه ولا يكون الله ورسوله فى حد وناحية والناس فى ناحية وحد فيكون فى الحدوالشق الذى فيه الناس دون الحد والشق الذى فيه الله ورسوله ولا يعطى المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطى الله فى خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه ولا يجعل مراد نفسه مقدما على مراد ربه *

فهذا كله من عدم وقار الله فى القلب ومن كان كذلك فان الله لا يلقى له فى قلوب الناس وقاراً ولا هيبة بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم وان وقروه مخافة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم : ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه على سره وضميره فيري فيه ما يكره: ومن وقاره أن يستحي منه فى الخلوة أعظم مما يستحي من اكابر الناس *

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه * القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة اليك والشيب زاجر ورادع وموقظ قائم بك: فلا ما ورد اليك وعظك ولا ما قام بك نصحك ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه : فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه : من سمع بالمثلات والعقوبات

والآيات فى حق غيره ليس كمن رآها عيانا فى غيره فكيف بمن وجدها فى نفسه (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فآياته فى الآفاق مسموعة معلومة وآياته فى النفس مشهودة مرئية فعياذاً بالله من الخذلان: قال تعالى (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتي يروا العذاب الأليم) وقال (ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتي وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) *

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا ويتمم نقائص خلقته بفضائل اخلاقه وأعماله فكلما امتحى من جثمانه أثر زاد ايمانه أثر وكلما نقص من قوى بدنه زاد فى قوة إيمانه ويقينه ورغبته فى الله والدار الآخرة وإن لم يكن هكذا فالموت خير له لأنه يقف به على حد معين من الالم والفساد بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر فانها زيادة فى الله وهمه وغمه وحسرته وانما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الغرض والتوبة النصوح كما قال تعالى (أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء اصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم وإلا فلا خير له فى حياته فان العبد على جناح سفر اما الا الجنة واما إلى النار : فاذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له فى حصول النعيم واللذة فانه كلما طال السفر اليها كانت الصبابة اجل وأفضل واذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة فى ألمه وعذابه ونزولا له إلى أسفل: فالمسافر اما صاعد واما نازل * وفى الحديث المرفوع « خيركم من طال عمره وحسن عمله وشركم من طال عمره وقبح عمله » *

فالطالب الصادق فى طلبه كما حرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة فى آخرته وكلما منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة فى لذات آخرته وكلما ناله همّ أو حزن أوغمّ جعله فى أفراح آخرته

فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته ان زاد فى حصول ذلك وتوفيره عليه فى معاده كان رحمة به وخيراً له وإلا كان حرمانا وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة أو ترك واجب ظاهر أو باطن فان حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب علي هذه الأربعة وبالله التوفيق * .

فائدة

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين وليس لهم حط عن رحالهم إلا فى الجنة أو النار والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الاخطار : ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة إنما ذلك بعد انتهاء السفر : ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر علي الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل وإذا نزل أو نام أو استراح فعلي قدم الاستعداد للسير *

فائدة

عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن (١) البر فى السير فى السر وقوف لأنه فى زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وإيمان مفصل كان أولى به فان اللطيفة الانسانية تحشر علي صورة عملها ومعرفتها وهمتها وإرادتها والبدن يحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح وإذا انتقلت من هذه الدار شاهدت حقيقة ذلك : وعلى قدر قرب قلبك من الله تبعد من الانس بالناس ومساكنتهم: وعلي قدر صيانتك لسرك وإرادتك يكون حفظه * وملاك ذلك صحة التوحيد ثم صحة العلم بالطريق ثم صحة الارادة ثم صحة العمل والحذر

---

(١) هكذا الاصل ولعله تصحيف عن الجد والسير

كل الحذر من قصد الناس لك واقبالهم عليك وأن يعثروا على موضع غرضك فانها الآفة العظمى *

فائده

كل ذى لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات : أحدها التزيد والاسراف فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهى حظ الشيطان ومدخله الى القلب وطريق (١) الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه : الثانية الغفلة فان الذاكر فى حصن الذكر فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو فيعسر عليه أو يصعب اخراجه * الثالثة تكلف ما لا يعنيه من جميع الاشياء *

فائده

طالب النفوذ الي الله والدار الآخرة بل والى كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأساً فى ذلك مقتدي به فيه يحتاج أن يكون شجاعاً مقداما حاكما علي وهمه غير مقهور تحت سلطان تخيله زاهداً فى كل ما سوي مطلوبه عاشقا لما توجه اليه عارفا بطريق الوصول اليه والطرق القواطع عنه مقدام الهمة ثابت الجأش لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل كثير السكون دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم قائما بما يحتاج اليه من أسباب معونته لا تستفزه المعارضات شعاره الصبر وراحته التعب محباً لمكارم الأخلاق حافظا لوقته لا يخالط الناس الا على حذر كالطائر الذى يلتقط الحب بينهم قائما على نفسه بالرغبة والرهبة طامعا فى نتائج الاختصاص على بنى جنسه غير مرسل شيئا من حواسه عبثا ولا مسرحا

---

(١) هكذا الاصل وهو غير ظاهر ولعل فى الكلام سقطاً تقديره وطريق الخلاص منه الاحتراز الخ

خواطره فى مراتب السكون : وملاك ذلك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الآدب مع الكشف *

فائدة

من الذاكرين من يبتديء بذكر اللسان وان كان علي غفلة ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطئا على الذكر : ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدىء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه فاذا قوى استتبع لسانه فتواطئا جميعا : فالاول ينتقل الذكر من لسانه الى قلبه : والثاني ينتقل من قلبه الي لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولا حتى يحس بظهور الناطق فيه فاذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي الي الذكر اللساني ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرا :وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده *

فصل

أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع اليه معروفا فانه نعم العون لك على منفعتك وكمالك: فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر : وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فانه عون لك علي مضرتك ونقصك *

فصل

اللذة المحرمة ممزوجة بالقبح حال تناولها مثمرة للألم بعد انقضائها فاذا اشتدت الداعية منك اليها ففكر فى انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ثم وازن بين الأمرين

وانظر ما بينهما من التفاوت :والتعب بالطاعةممزوج بالحسن مثمر للذة والراحة فاذا ثقلت على النفس ففكر فى انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذتهاوسرورهاووازن بين الأمرين وآثر الراجح على المرجوح فان تألمت بالسبب فانظر الي ما فى المسبب من الفرحة والسرور واللذة يهن عليك مقاساته وإن تألمت بترك اللذة المحرمة فانظر الى الألم الذى يعقبه ووازن بين الالمين وخاصية العقل تحصيل أعظم المنفعتين بتفويت أدناهما واحتمال أصغر الالمين لدفع أعلاهما *

وهذايحتاج الي علم بالاسباب ومقتضياتها والي عقل يختار به الاولي والانفع له منها فمن وفر قسمه من العقل والعلم اختار الافضل وآثره ومن نقص حظه منهما أومن أحدهما اختار خلافه ومن فكر في الدنيا والآخرة علم أنه لاينال واحداً منهما الا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما *

فصل

لله على العبد فى كل عضو من أعضائه أمر وله عليه فيه نهى وله فيه نعمة وله به منفعة ولذةفان قام لله فى ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه وسعى فى تكميل انتفاعه ولذته به وان عطل أمر اللهونهيهفيهعطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته: ولهعليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه اليه وتقربه منهفان شغل وقته بعبوديةالوقت تقدم الي ربه وان شغله بهوى أوراحة وبطالة تأخر فالعبد لايزال فى تقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق البتة : قال تعالى (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) *

فصل

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمروالنهى والعطاء والمنع فافترقوا فرقتين فرقة قابلت أمره بالترك ونهيه بالارتكاب وعطاءه بالغفلة عن الشكر ومنعه

بالسخط وهؤلاء أعداؤه وفيهم من العداوة بحسب مافيهم من ذلك : وقسم قالوا إنما نحن عبيدك فان أمرتنا سارعنا إلى الاجابة وان نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه وان اعطيتنا حمدناك وشكرناك وان منعتنا تضرعنا اليك وذكرناك فليس بين هؤلاء وبين الجنة الا ستر الحياة الدنيا فاذا مزقه عليهم الموت صاروا الى النعيم المقيم وقرة الأعين كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار الا ستر الحياة فاذا مزقه الموت صاروا الى الحسرة والألم *

فاذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك وأردت أن تعلم من أى الفريقين أنت فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل اذلا يمكنك الوقوف بين الجيشين فأنت مع أحدهما لامحالة فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه واستنصحوا العقل فشاوروه وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له وجوارحهم للعمل بما أمروا به وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم فى الآخرة واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة الي الاعمال وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم اليها واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم اليه وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه وأقبل بقلوبهم اليه وجمعها علي محبته وشوقهم الي لقائه ونعمهم بقربه وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن علي فوتها والغم من خوف ذهابها فاستلانوا مااستوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدانهم والملأ الاعلي بأرواحهم *

فصل

التوحيد أصلف(١) شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه فأدني شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه فهو كابيض ثوب يكون يؤثر فيه أدني أثر وكالمرآة الصافية جدا أدني شيء يؤثر فيها ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية فان بادر صاحبه

(١) هكذا الاصل وهو غير ظاهر ولعله محرف عن أشف

وقلع ذلك الاثر بضده والا استحكم وصار طبعا يتعسر عليه قلعه *

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه منها مايكون سريع الحصول سريع الزوال: ومنها مايكون سريع الحصول بطيء الزوال: ومنها مايكون بطيء الحصول سريع الزوال: ومنهامايكون بطيء الحصول بطيء الزوال ولكن من الناس من يكون توحيده كبيراً عظيما ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدني نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بماخلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده فيظهر تأثيره فيه مالم يظهر فى التوحيد الكثير: وأيضافان المحل الصافى جدا يظهر لصاحبه مما يدنسه مالايظهر فى المحل الذي لم يبلغ فى الصفاء مبلغه فيتداركه بالازالة دون هذا فانه لايشعر به: وأيضافان قوة الايمان والتوحيد اذا كانت قوية جدا أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة: وأيضا فان صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بمالايسامح به من أتي مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن كما قيل *

وإذا الحبيب أتي بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضاً فان صدق الطلب وقوة الارادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة الى مقتضاه وموجبه كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الاقوال والافعال الممدوحة الى مقتضاه وموجبه كما يشاهد ذلك فى الاخلاط الغالبة واحالتها لصالح الأغذية الي طبعها *

فائدة

ترك الشهوات لله وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته فذخائر الله وكنوز للبر ولذة الانس والشوق اليه والفرح والابتهاج به لا يحصل فى قلب فيه غيره وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم فان الله سبحانه أبي أن يجعل

ذخائره فى قلب فيه سواه وهمته متعلقة بغيره وانما يودع ذخائره فى قلب يرى الفقر غنى مع الله والغنى فقرا دون الله والعز ذلا دونه والذل عزا معه والنعيم عذابا دونه والعذاب نعيما معه : وبالجملة فلا يرى الحياة الا به ومعه والموت والألم والهم والغم والحزن اذا لم يكن معه فهذا له جنتان جنة في الدنيا معجلة وجنة يوم القيامة *

فائده

الانابة هى عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن فى المسجد لايفارقه: وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالاجلال والتعظيم وعكوف الجوارح علي طاعته بالاخلاص له والمتابعة لرسوله ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان حظه العكوف على الرب الجليل : والتماثيل جمع تمثال وهى الصور الممثلة فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه علي التماثيل التي قامت بقلبه وهو نظير العكوف علي تماثيل الأصنام ولهذا كان شرك عباد الاصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم فاذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليهافهو نظير عكوف الاصنام عليها ولهذا سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش *

الناس فى هذه الدار علي جناح سفر كلهم وكل مسافر فهو ظاعن الي مقصده ونازل علي من يسر بالنزول عليه وطالب الله والدار والآخرة انما هو ظاعن الى الله فى حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه فهذه همته فى سفره وفى

انقضائه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الي ربك راضية مرضية فادخلي فى عبادى وادخلي جنتي) وقالت امرأة فرعون (رب ابن لي عندك بيتاً فى الجنة) فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون فى الجنة فان الجار قبل الدار *

من كلام الشيخ على

قيل لي فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم لاتبد فاقة الى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك في عبوديتك ابتليتك بالفقر لتصير ذهباً خالصا فلا تزيفن بعد السبك حكمت لك بالفقر ولنفسي بالغنى فان وصلتها بي وصلتك بالغنى وان وصلتها بغيرى حسمت عنك مواد معونتي طرداً لك عن بابي لا تركن الى شيء دوننا فانه وبال عليك وقاتل لك: ان ركنت الي العمل رددناه عليك :وان ركنت الى المعرفة نكرناها عليك:وان ركنت الى الوجد استدرجناك فيه :وان ركنت الى العلم أوقفناك معه:وان ركنت الي المخلوقين وكلناك اليهم ارضنا لك رباً نرضاك لنا عبدا *

فائدة

الشهقة التى تعرض عند سماع القرآن او غيره لها اسباب: أحدها ان يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح اليها فتحدث له الشهقة فهذه شهقة شوق: وثانيها أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفاً وحزناعلى نفسه وهذه شهقة خشية: وثالثها أن يلوح له نقص فيه لا يقدر علي دفعه عنه فيحدث له ذلك حزنا فيشهق شهقة حزن * ورابعها ان يلوح له كمال محبوبه ويري الطريق اليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف، وحزن * وخامسها ان يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحا والطريق ظاهرة فشهق فرحا وسرورا بما لاح له وبكل حال: فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف

المحل عن الاحتمال والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلا ولايظهر عليه وذلك أقوى له وأدوم فانه اذا اظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه هذا حكم الشهقةمن الصادق فان الشاهق اما صادق واما سارق واما منافق *

قاعدة نافعة

أصل الخير والشر من قبل التفكر فان الفكر مبدأ الارادة والطلب فى الزهد والترك والحب والبغض : وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفى طرق اجتلابها وفى دفع مفاسد المعاد وفى طرق اجتنابها فهذه أربعة أفكار هى أجل الافكار : ويليها أربعة : فكر فى مصالح الدنيا وطرق تحصيلها: وفكر فى مفاسد الدنيا وطرق الاحترازمنها فعلي هذه الأقسام الثمانية دارت أفكارالعقلاء. ورأس القسم الأول الفكر فى آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة فاذافكر فى الآخرة وشرفها ودوامها وفى الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وكلما فكر فى قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع فى اغتنام الوقت: وهذه الافكار تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله فى واد والناس فى واد: وبازاء هذه الأفكار الافكار الرديئة التي تجول فى قلوب أكثر هذا الخلق كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ولاأعطى الاحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع كالفكر فى كيفية ذات الرب وصفاته مما لا سبيل للعقول الي إدراكه : ومنها الفكر فى الصناعات الدقيقة التى لاتنفع بل تضر كالفكر فى الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير : ومنها الفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالا ولا شرفا كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى وأكثر علوم الفلاسفة التى لو بلغ الانسان غاياتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه : ومنها الفكر فى الشهوات

واللذات وطرق تحصيلها وهذا وإن كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له ومضرته في عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته : ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون كالفكر فيما اذا صار ملكا أو وجد كنزاً أو ملك ضيعة ماذا يصنع وكيف يتصرف ويأخذ ويعطى وينتقم ونحو ذلك من أفكار السفل : ومنها الفكر في جزئيات أحوال الناس وما جرياتهم ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة: ومنها الفكر في دقائق الحيل والمكر التي يتوصل بها الى اغراضه وهواه مباحة كانت أو محرمة : ومنها الفكر في أنواع الشعر وصروفه وأفانينه في المدح والهجاء والغزل والمراثي ونحوها فانه يشغل الانسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة: ومنها الفكر في المقدرات الذهنية التي لا وجود لها في الخارج ولا بالناس حاجة اليها البتة وذلك موجود في كل علم حتى في علم الفقه والاصول والطب فكل هذه الافكار مضرتها أرجح من منفعتها ويكفي في مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلا وآجلا *

قاعدة

الطلب لقاح الايمان فاذا اجتمع الايمان والطلب أثمرا العمل الصالح * وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار اليه فاذا اجتمعا أثمرا اجابة الدعاء * والخشية لقاح المحبة فاذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب النواهي * والصبر لقاح اليقين فاذا اجتمعا أورثا الامامة في الدين : قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الاخلاص فاذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به * والعمل لقاح العلم فاذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئاً * والحلم لقاح العلم فاذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم وإن انفرد

أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع * والعزيمة لقاح البصيرة فاذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة وبلغت به همته من العلياء كل مكان : فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة * وحسن القصد لقاح لصحة الذهن فاذا فقدا فقد الخير كله وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات * وصحة الرأى لقاح الشجاعة فاذا اجتمعا كان النصر والظفر وإن قعدا فالخذلان والخيبة وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجز وإن حصلت الشجاعة بلا رأى فالتهور والعطب * والصبر لقاح البصيرة فاذا اجتمعا فالخير فى اجتماعهما: قال الحسن إذا شئت أن ترى بصيرا لا صبر له رأيته وإذا شئت أن ترى صابرا لا بصير له رأيته فاذا رأيت صابرا بصيرا فذاك * والنصيحة لقاح العقل فكلما قويت النصيحة قوى العقل واستنار * والتذكر والتفكر كل منهما لقاح الآخر إذا اجتمعا انتجا الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة * والتقوى لقاح التوكل فاذا اجتمعا أستقام القلب * ولقاح أخذ أهبة الاستعداد للقاء قصر الأمل فاذا اجتمعا فالخير كله فى اجتماعهما والشر فى فرقتهما * ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة فاذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد *

قاعده

للعبد بين يدى الله موقفان : موقف بين يديه فى الصلاة : وموقف بين يديه يوم لقائه: فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف : قال تعالى (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) *

قاعده

اللذة من حيث هى مطلوبة للانسان بل ولكل حى فلا تذم من جهة كونها لذة وانما تذم ويكون تركها خيرا من نيلها وأنفع اذا تضمنت فوات لذة

أعظم منها وأكمل أو أعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها فيهنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والاحمق الجاهل: فمتي عرف العقل التفاوت بين اللذتين والالمين وانه لا نسبة لاحدهما الى الآخر هان عليه ترك أدني اللذتين لتحصيل أعلاهما واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما * واذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم ولذة الدنيا أصغر وأقصر وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا والمعول فى ذلك على الايمان واليقين فاذا قوي اليقين وباشر القلب آثر الأعلى على الأدني فى جانب اللذة واحتمل الألم الأسهل علي الأصعب والله المستعان *

فائدة

قوله تعالى (وأيوب اذ نادي ربه اني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) جمع فى هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة الى ربه ووجود طعم المحبة فى المتملق له والاقرار له بصفة الرحمة وانه ارحم الراحمين والتوسل اليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره ومتي وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره *

فائدة

قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال (أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) جمعت هذه الدعوة الاقرار بالتوحيد والاستسلام للرب واظهار الافتقار اليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الاسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء *

فائدة

قول الله تعالى (وإن من شيء الا عندنا خزائنه) متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب الا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه : وقوله (وان الي ربك المنتهى) متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد ان لم يرد لاجله ويتصل به والا فهو مضمحل منقطع فانه ليس اليه المنتهى وليس المنتهى الا الى الذى انتهت اليه الأمور كلها فانتهت الى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب وكل محبوب لايحب لاجله فمحبته عناء وعذاب: وكل عمل لايراد لاجله فهو ضائع وباطل: وكل قلب لايصل اليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه فاجتمع ما يراد منه كله فى قوله (وإن من شيء الاعندنا خزائنه) واجتمع ما يراد له كله فى قوله (وان الى ربك المنتهى) فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية اليها المنتهى *

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن الا بالوصول اليه وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد اليه المنتهى ويستحيل أن يكون المنتهى الى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين فمن كان انتهاء محبته ورغبته وارادته وطاعته الي غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان اليه : ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد *

العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر واحكام النوازل فهو محتاج بل مضطر الي العون عند الأوامر والى اللطف عند النوازل وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل فان كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطنا ناله اللطف

ظاهرا وباطنا وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف فى الظاهر وقل نصيبه من اللطف في الباطن ﴿فان قلت﴾ وما اللطف الباطن (١) فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع فيستخذى بين يدي سيده ذليلا له مستكينا ناظرا اليه بقلبه ساكنا اليه بروحه وسره قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وانه عبد محض يجرى عليه سيده أحكامه رضى أو سخط فان رضى نال الرضا وان سخط فحظه السخط فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها *

فائدة جليلة

لايزال العبد منقطعا عن الله حتى تتصل إرادته ومحبته بوجهه الأعلى: والمراد بهذا الاتصال أن تفضي المحبة اليه و تتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة والتفاته فى حال الذكر الي غير مذكوره فحينئذ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها ويترك المناهى لكونه نهى عنها وأبغضها: فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه وحقيقة زوال العلل الباعثة علي الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقا به سبحانه مطمئنا اليه راضياً بحسن تدبيره له غير متهم له فى حال من الاحوال ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دون من سواه ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده فلا يخاف غيره ولا يرجوه ولا يفرح به كل الفرح ولا يسر به غاية السرور وان ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون

(١) هكذا الاصل ولعل الجواب محذوف تقديره: قلت هوما الخ

القلب إلا به سبحانه وما سواه ان أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به وان حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به فلا فرحة ولاسرور الا به أو بما أوصل اليه وأعان على مرضاته وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الاسلام والايمان والقرآن كما فسره الصحابة والتابعون: والمقصود أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل والا فهو مقطوع عن ربه متصل بحظه ونفسه ملبس عليه فى معرفته وإرادته وسلوكه ❊

قاعدة جليلة

قد فكرت فى هذا الامر فاذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده نعم الطاعات ونعم اللذات فترغب اليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها قال تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون) وقال (فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) وقال (واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون) وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال الا بتوفيقه: والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه فاذا هو مضطر الى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه اسبابها حتي لاتصدر منه واذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر الى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلاينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة ولافلاح له الا بها الشكر وطلب العافية والتوبة النصوح :

ثم فكرت فاذا مدار ذلك علي الرغبة والرهبة وليسا بيد العبد بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء فان وفق عبده أقبل بقلبه اليه وملأه رغبة ورهبة وان خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه اليه ولم يسأله ذلك وماشاء الله كان ومالم يشاء لم يكن ❊

ثم فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب أم هما بمجرد المشيئة لا سبب لهما فاذا سببهما أهلية المحل وعدمها فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة فى الاستعداد والقبول اعظم تفاوت فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان وكذلك النوعان كل منهما متفاوت فى القبول فالحيوان الناطق يقبل مالا يقبله البهيم وهو متفاوت فى القبول أعظم تفاوت : وكذلك الحيوان البهيم متفاوت فى القبول لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الانساني فاذا كان المحل قابلا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظمه عليها ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة من غير أن يكون هو مستحقا لها ولا هي له ولا به وإنما هى لله وحده وبه وحده : فوحده بنعمته اخلاصا وصرفها فى محبته شكرا : وشهدها من محض جوده منة : وعرف قصوره وتقصيره فى شكرها عجزا او ضعفا وتفريطا: وعلم انه ان ادامها عليه فذلك محض صدقته وفضله واحسانه وان سلبه اياها فهو أهل لذلك مستحق له: وكلما زاده من نعمه ازداد زلاله وانكساراً وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه اياها لعدم توفيته شكرها كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها فان لم يشكر نعمته وقابلها بضدما يليق أن يقابل به سلبه اياها ولابد قال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله باعلم بالشاكرين) وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا علي المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره : وقال تعالى (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالاته) ٭

فصل

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لى وانما أوتيته لانى أهله ومستحقه كما قال تعالى (قال انما أوتيته على علم عندي) أى على علم علمه الله عندي استحق به ذلك وأستوجبه واستأهله قال

الفراء اى على فضل عندى اني كنت أهله ومستحقا له اذأعطيته : وقال مقاتل يقول علي خير علمه الله عندى : وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود فيما أوتي من الملك ثم قرأ قوله تعالى (هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) ولم يقل هذامن كرامتي ثم ذكرقارون وقوله(انما أوتيته على علم عندي) يعني أن سليمان رأى ماأوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلي به شكره وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه وكذلك قوله سبحانه (ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي) أي أنا أهله وحقيق به فاختصاصى به كاختصاص المالك بملكه والمؤمن يري ذلك ملكا لربه وفضلا منه منّ به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها علي عبده وله أن لا يتصدق بها فلو منعه اياها لم يكن قد منعه شيئاً هو له يستحقه عليه فاذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقا فاعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها فكان حظها منها الفرح والفخر : كماقال تعالى (ولئن اذقنا الانسان منا رحمةثم نزعناها منه انه ليؤس كفور ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور) فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء : واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه اذ كشف عنه البلاء قوله ذهب السيئات عنى ولو انه قال اذهب الله السيئات عنى برحمته ومنه لما ذم على ذلك بل كان محموداً عليه ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب اليها وفرح وافتخر فاذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه فان محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها اليهم وهو توليهم واعراضهم اذا عرفوها وتحققوها *

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل واهمالها وتخليتها فأسباب الخذلان منها وفيها وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة : فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك: وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحبه وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم *

قال شيخ الاسلام بحر العلوم مفتي الفرق

أبو العباس احمد بن تيمية رحمه الله

فصل

قال الله تعالى(ألم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون * من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون * ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين * ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) * وقال الله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل

الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) وقال الله تعالى لما ذكر المرتد والمكره بقوله (من كفر بالله من بعد ايمانه) قال بعد ذلك (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) * فالناس اذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول احدهم آمنا وإما ان لا يقول آمنا بل يستمر على عمل السيئات فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب ومن لم يقل آمنا فلا يحسب انه يسبق الرب لتجربته فان أحداً لن يعجز الله تعالى هذه سنته تعالي برسل الرسل الى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم قال تعالي (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن) وقال تعالى (كذلك ما أتي الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) وقال تعالي (ما يقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك) ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه فابتلي بما يؤلمه وان لم يؤمن بهم عوقب فحصل ما يؤلمه أعظم وأدوم فلا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة والكافر تحصل له النعمة ابتداء ثم يصير فى الألم ﴿ سأل رجل الشافعي ﴾ فقال يا أبا عبد الله أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلي فقال الشافعي لا يمكن حتى يبتلى فان الله ابتلي نوحا وابراهيم وموسي وعيسي ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة : وهذا أصل عظيم فينبغي للعاقل أن يعرفه وهذا يحصل لكل أحد فان الانسان مدني بالطبع لا بد له من أن يعيش مع الناس والناس لهم ارادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها ولئن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وان وافقهم حصل له الاذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئا كثيرا كقوم يريدون الفواحش والظلم

ولهم أقوال باطلة فى الدين أو شرك فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات فى قوله تعالى (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وهم فى مكان مشترك كدار جامعة أو خان أو قيسرية أو مدرسة أو رباط أو قرية أو درب أو مدينة فيها غيرهم وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك أو بسكوتهم عن الانكار عليهم فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت فان وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرهم فى الابتلاء ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام في الدين بالباطل إما فى الخبر وإما فى الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم فان لم يجبهم آذوه وعادوه وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه فيهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه وإلا عذب بغيرهم فالواجب ما فى حديث عائشة الذي بعثت به الى معاوية ويروى موقوفا ومرفوعا « من أرضي الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس» وفى لفظ « رضى الله عنه وأرضي عنه الناس ومن أرضي الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » وفى لفظ « عاد حامده من الناس ذاما »

وهذا يجرى فيمن يعين الملوك والرؤساء علي أغراضهم الفاسدة * وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين الى العلم والدين علي بدعهم فمن هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة كما جرى للرسل واتباعهم مع من آذاهم وعاداهم مثل المهاجرين فى هذه الأمة ومن ابتلى من علمائها وعبادها وتجارها وولاتها : وقد يجوز فى بعض الأمور إظهار الموافقة وإبطان المخالفة كالمكره على الكفر كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع إذ المقصود هنا أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذى الناس فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة : ولهذا ذكر الله تعالى فى غير موضع

أنه لا بد أن يبتلي الناس والابتلاء يكون بالسراء والضراء ولا بد أن يبتلي الانسان بما يسره وما يسوؤه فهو محتاج الى أن يكون صابراً شكورا قال تعالي (إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وقال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وقال تعالى (أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) هذا في آل عمران: وقد قال قبل ذلك فى البقرة فان البقرة نزل اكثرها قبل آل عمران (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتي يقول الرسول والذين آمنوا معه متي نصر الله الا إن نصر الله قريب) وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتي تمحص بالبلاء كالذهب الذى لا يخلص جيده من رديئه حتي يفتن فى كير الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهي منشأ كل شر يحصل للعبد فلا يحصل له شر الا منها : قال تعالي (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أني هذا قل هو من عند أنفسكم) وقال (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وقال تعالى (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها علي قوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم الى آخر وقت : وفى كل ذلك يقول إنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون وأول من اعترف بذلك ابواهم قالا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال لابليس (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) وإبليس انما اتبعه الغواة منهم كما قال (فبما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) وقال تعالى (إن عبادى

ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) والغى اتباع هوى النفس وما زال السلف معترفون بذلك كقول أبي بكر وعمر وابن مسعود أقول فيها برأيي فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : وفى الحديث الالهى حديث ابي ذر الذى يرويه الرسول عن ربه عز وجل « يا عبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » وفى الحديث الصحيح حديث « سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا آله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوءلك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي فاغفرلى انه لا يغفر الذنوب الا أنت من قالها اذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » * وفى حديث أبي بكر الصديق من طريق أبي هريرة وعبد الله بن عمرو « أن رسول الله ﷺ علمه ما يقوله اذا أصبح واذا أمسى واذا أخذ مضجعه اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا اله الا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجرّه الى مسلم قله اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك » وكان النبى ﷺ يقول فى خطبته « الحمد لله نستعينه و نستغفره و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » وقد قال النبى صلي الله عليه وسلم «إني آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون تهافت الفراش » شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته وهى صغيرة النفس فانها جاهلة سريعة الحركة: وفى الحديث « مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة » وفى حديث آخر « للقلب أشد تقلبا من القدر اذا استجمعت غليانا » ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه أنه استخفه قال عن فرعون إنه استخف قومه فأطاعوه: وقال تعالى (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون)

فان الخفيف لايثبت بل يطيش وصاحب اليقين ثابت يقال أيقن إذا كان مستقرا واليقين استقرارا لايمان فى القلب علما وعملا فقد يكون علم العبد جيدا لكن نفسه لاتصبر عند المصائب بل تطيش: قال الحسن البصرى اذا شئت أن ترى بصيرا لا صبر له رأيته وإذا شئت أن ترى صابرا لا بصيرة له رأيته فاذا رأيت بصيرا صابرا فذاك: قال تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) ولهذا تشبه النفس بالنار فى سرعة حركتها وإفسادها وغضبها وشهوتها من النار والشيطان من النار * وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «الغضب من الشيطان والشيطان من النار وإنما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ» وفى الحديث الآخر «الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم» ألاترى الي جمرة عينيه وانتفاخ أوداجه وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام: وفى الحديث المتفق علي صحته «ان الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم» وفى الصحيحين «أن رجلين استبا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتد غضب أحدهما فقال النبى صلى الله عليه وسلم اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وقد قال تعالي (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الاذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) وقال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال تعالي (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) *

تم الكتاب والحمد لله أولا وآخرا وصلي الله على رسولنا محمد النبي الأمى وعلي آله وصحبه وتابعيه والمتقدين بآثارهم الي يوم الدين: وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين *

فهرس كتاب الفوائد لابن القيم

الصحيفه	الموضوع

